أظن أنّ الرسالة

وصلت..

بقلم

رجاء محمد

أظن أن الرسالة وصلت..

بطاقة الكتاب:
اسم الكتاب: أظن أن الرسالة وصلت
اسم الكاتب: رجاء محمد
نوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 182 صفحة
المقاس: ١٤ x ٢٠
رقم إيداع: ٢٠٢٠/٢٢٤٧٠م
الترقيم الدولي: 978-977-6736-31-3
الطبعة: الأولى، ٢٠٢٠م

رئيس مجلس الإدارة

مها المقداد

للتواصل والطلب من داخل أو خارج مصر:
00201129195867-00201033966291

الغلاف والتنسيق الداخلي والمراجعة

فريق دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع

أقر المؤلف بأنه وحده صاحب الحقوق الفكرية للكتاب، وأنه يضمن للناشر عدم التعرض من الغير بخصوص الملكية الفكرية، كما صرح أن هذا الكتاب ليس في مضمونه ما يمنعه القانون، وأن الآراء والأفكار التي يتضمنها محتوى الكتاب تعبر عن فكر المؤلف فقط ولا يعبر عن رأى الناشر، ولا يوجد داخل الكتاب نقل أو استعارة بما قد يعرّض الناشر للمسؤولية القانونية.

أظن أن الرسالة وصلت..

بقلم

رجاء محمد

فريق عمل

دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف **إسلام عبدالحليم**

التنسيق الداخلي **مها المقداد**

دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع-مها المقداد

+201289024055

Mahaelmukdad@gmail.com

إهداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى أولئك الذين لن

يتكرّروا في "حياتي" مرّتين؛

"شكرا لأنكم كنتم ولا زلتم جزءا منها"

شكر خاص...

إلى الفتاة الموهوبة Marika Mangaka؛

" تلك التي حوّلت حروف مخيلتي إلى ملامح واقعيّة. "

عن الرواية

تعرفُ الرسائل عناوينها جيّدًا وقُرّاءها أيضا...
هي نفسها التي نقلها الحمام الزاجل في عصور خلت؛ حُرًّا دون أن يشعر بقيدها في ساقه أو أنّه مجبر على إيصالها، غير آبه إن حملت البشرى أو دارت بين طيّاتها الخذلان؛ يطير باختياره دون أن يُوجَّه جناحاه؛ حتى يتعرف عليه صاحب الرسالة... ذاتها ذات تلك القصاصات المكتوبة بحبر اللامبالاة؛ التي أُودِعت في زجاجات سابقًا وأُلقيَ بها في عرض البحر رغم يقين مُرسلها أنّ الأمواج لم تكن يوما ساعي بريد أحدهم... حتّى عندما أضحت مجرد نصوص قصيرة تُكتب على عجلة وتُرسل بضغطة زر سهوا، أو حين اختُصِرت في نوافذ محادثة؛ تُفتح لمراسلة أكثر من شخص في آن واحد وتُغلق حسب المزاج. ما من شيء جدّ في الأمر سوى أنّه استحال علينا التحجج ببعد المسافة وتعذّر الوصول، صارت صناديقنا مجوّفة؛ لا يُودع سعاة البريد فيها سوى اشعارات تسديد الفواتير لتظل خالية إلى اشعار آخر. شيئا فشيئا فقدنا لهفة الانتظار وعفويّة الحديث؛ أصبحنا نتراسل بأنامل باردة نماذج تعبيرية مكرّرة جفّت منها بلاغة الكلمات وصدق المعاني وسُموّها.
و مع ذلك ظلّت كتابتها حاجة؛ حتى لو كانت إلى ذواتنا... حتّى لو لم تصل... حتّى لو لم تُقرأ! إذْ لا تُتعب كتابة الرسائل بقدر ما يُنهك التّردد في ارسالها من عدمه! وليكن؛ يكفي أن لا تبقى حبيسة ضجيج الأفكار، فهناك من تخونه الكلمات حين تأبى الإفصاح بما تعذّر على اللّسان التّفوه به، وهناك من لا عناوين ثابتة لمراسيله فحُكم عليه أن يحملها معه أبد الدّهر، هناك من يكون حذرا في كل ما يكتب، مثلما هناك من لا يترك بين الحبر والورق وسيط، وكثيرون غيرهم... من يستغل أكثر من مرسال لإيصال مراده، من يرسل دون أن ينتظر ردّا، من لا يملك الشجاعة ليصرّح بالمبعوث إليه فيُحمّل كل من حوله عبء رسائله، ومن لا يرتاح إلا إذا سلّم كلماته بنفسه لسانا بلسان!

لا يكفيك أن تكون قارئا مُتمكّنا حتّى تفقه فحواها، لا بد أن تُطرق السمع لصدى كلماتها، فليست كل الرسائل متوقّعة ولا ساذجة؛ لتكشف لك عن مضامين سطورها بمجرد فتحها، قد تصادفك رسالة ماكرة؛ تفضّل أن تحتفظ بلُبّها بين ثناياها، فلا تبوح لك بما يجب أن تفهمه منها من أول قراءة... أو رسالة مخادعة؛ ترغمك على إساءة فهمها... أو خائنة؛ تأخذ أولى أنفاسها بين يدي أيّ قارئ تصادفه.
الرسائل تصل لا محالة، لكنها قد تصل في التوقيت الخطأ أو للأشخاص الخطأ دون أن تُخطئ العنوان! ذلك لأن تملُّك الذنب والتقصير من شعور أحدهم؛ يرغمه على تأويل المفاد والتوهم أنّ خطّ سير كل الرسائل من حوله موجه إليه بالذّات!

للرسالة دلالة أخرى؛ أكثر عمقا، تلك التي قد تستغرق كتابتها عمرا بأكمله، رسالاتنا في الحياة...
لكل منا رسالة عليه تأديتها في رحلته الدنيوية، شيءٌ ما يستحق أن يكرّس عمره في سبيله، سببٌ خُلق لأجله، دورٌ استثنائي... حتى لو بدت الحياة في الأصل محطة مؤقتة.

وأنت تقرأ الرواية؛ قد تستوقفك رسالة تستشعر أنّها كُتبت إليك خصيصا... احتفظ بها في جعب الذاكرة حتّى يتسنّى لك قراءتها من جديد متى ما غيّرت تحكّمات الحياة عنوان مبادئك أو قناعاتك، لكن احذر أن تصلك بعض الرسائل بالخطأ!
وسواء وصلتك رسائلي العابرة أم لم تصل؛ ابحثْ عن رسالتك في الحياة، أحسِنْ صياغتها وأدّها بإخلاص!

استهلال

٢٠١٩/١٢/١٨
مقر مجلة "نور" الشهرية

.....

كان "جواد" جالسًا في مكتبه مرتديًا سترته السميكة؛ في محاولة يائسة منه لمقاومة نفحات الصّقيع الصادرة من الشباك المقابل له، منهمكا في تحرير استقالته بعد أن أغلق للتو مكالمة هاتفية يؤكّد فيها حجز الطائرة. شاب في مقتبل العمر أنيق المظهر، لا تغادر الجديّة قسمات وجهه المحدّد بلحية مشذّبة وشعر مصفّف إلى الوراء، تبرز منه عينان متألقتان بطيف التحدي.

بنظرات واشية بشيء من الوداع؛ تأمّل غرفة مكتبه حديثة الطراز، شرد في التفكير محدّقا بشاشة حاسوبه في رحلة طويلة مرورا بـ"ما كان" وصولا إلى "ما أصبح"... من مندوب إعلانات إلى موظف في الأرشيف ثم منقح لغوي، إلى أن صار محرّرا صحفيّا له ركن خاص في صفحات المجلة.

استشعر أن الشاشة أظلمت فتدارك نفسه وأسرع بتحريك المؤشر؛ كي لا يضطر لإدخال كلمة المرور من جديد، ثم أسند ظهره إلى مقعده الجلدي الوثير معتدلا في جلسته، وثبّت نظارته بسبابته مقطبا حاجبيه، وتحت وطأة عبق رائحة القهوة المتصاعد من كوبه الذي لا يزال ساخنا؛ راح يطالع آخر مقالة له في عدد اليوم.
لم يكن متأكدا بعد إن كان سيقرأ شيئا موسوما باسمه مستقبلا، لكنه كان على قناعة تامة بأنه لن يسمح لأحد غيره بقراءة ما قد سيكتبه؛ في حالة ما إذا ضعف أمام الحروف من جديد؛ أو لو لم تسأم أفكاره من ممارسة سطوها عليه.

لأول مرة منذ أن افتُتِحت المجلة يُنشر عددين في شهر واحد؛ وفي يومين متتاليين!
لقد تفاعل القراء كثيرا مع مقالة الأمس، والتي كانت في الأساس تتمة لسلسلة مقالات تسرد وقائع قصة حقيقية؛ تحمل "الرسالة" كعنوان لها وتحتل الصفحات الأخيرة من كل عدد منذ ما يقارب السنة. كان يُفترض بها أن تنتهي في عدد الأمس، لكن آراء المتابعين على مواقع التواصل الاجتماعي؛ تضاربت بين من ينتظر جزءا ثان للسلسلة آملا أن يكون للحكاية بقية، ومن اقتنع بنهايتها وطالب بحكايات أخرى على نفس المنوال، فأُصدر عدد اليوم كملحق ليضع حدّا لهذا الجدل ويعلن نهاية السلسلة رسميا، خاصة وأنّ المشرفيْن الرئيسيّيْن عليها سينفصلان عن المجلة.
بعد قراءة سريّة سريعة، ضغط "جواد" على زر إغلاق النافذة؛ فظهرت على خلفيّة سطح المكتب صورة لفتاة في أواخر العشرينات رقيقة الملامح، شعرها النّاري متناثر على كتفيها، عيناها البنيتان تتّقدان ذكاءً وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة عفويّة كشفت عن أسنانها، لتظهر يدها في الصّورة وهي تعبث بسلسال فضيّ في رقبتها؛ تدلّى منه حرف "السّين" باللاتينية.

أغلق جهازه، رشف آخر قطرات القهوة العالقة في كوبه ثم انطلق يجمع أغراض مكتبه الشخصية في عجلة داخل صندوق من كرتون، حافظة أقلام ذهبية محفور عليها أولى حروف اسمه، ساعة رملية ومصباح كهربائي مكتبيّ، برواز صورة له مأخوذة بزاوية مائلة رديئة نوعا ما؛ تُظهر أنها التُقِطت على حين غرة. كانت الصورة بعدسة "سارة"، مصوّرة متطوعة بقسم الحوادث في المجلة، توحي جودة تصويرها أنّها اختارت هذا القسم تحديدا تجاوزا للانتقاد، حيث لا وقت للضحايا للاعتراض أو إبداء رأيهم في صورها، ربما لذات السبب تزاول تخصصّا آخر وتعتبر التصوير هواية لا أكثر، خاصّة وأنّ المجلة نادرا ما تهتم بمثل تلك الأخبار.

انتاب الوجوم وجوه زملائه الماريّن بمكتبه بين الفينة والأخرى وهم يسترقون النظر إليه خلسة، البعض مستغرب من رحيله المفاجئ وقد احتل مؤخرا مكانة

أكبر في المجلة، ونال أخيرا استحسان رئيس التحرير، والبعض الآخر طغت على ملامحهم ابتسامة نصر ماكرة؛ فقد وجدوها فرصة لا بدّ من اقتناصها، كلّ يرى نفسه المرشح الكفء لسدّ منصبه.

انتقل إلى أدراج مكتبه، أخذ يصفّي أوراقه المتناثرة التي ظلّت حبيسة هناك، خلاصةُ سنوات من العمل. كلّها مسودّات لمقالات لم يسبق أن نشرت المجلة ثلثها كأقصى تقدير، ورغم نظرة الحنين تلك؛ إلّا أنه ألقى بها في سلة المهملات دون أن يكلّف نفسه عناء تمزيقها، استوقفته مسودة فرّقها عن البقية بخط اليد الأنيق -ذي الطابع الأنثوي- فانتشلها بإحكام، وظلّ واقفا يقرأها من جديد مثل أوّل مرة:

(تُروى القصص والروايات عادة على لسان أشخاص إما عاشوها واقعا أو خيالا، أو سمعوا عنها وأعادوا سردها بأسلوبهم. الحكايات لا تموت ولا تقف عند أحد، تُحكى عند النوم وتُخلّد في الكتب وتُصاب أحيانا بهوس تكرار نفسها في الواقع، أو تستمد أحداثها منه!
في الحكايات حياة أخرى؛ هناك من تشدّه البدايات... ومن ينتظر النهايات، من يستمتع بالأحداث... ومن تأسره التفاصيل؛ من يتخيل ما يُحكى... ومن يقرأ ما بين السطور، من يتعاطف مع الضحية... ومن يُؤيّد البطل مهما فعل، من لا يتقبل النهايات المأساوية... ومن لا يصدّق السعيدة منها. إذا أردت قصّة كاملة عليك ببساطة أن تسمع من كل هؤلاء!
فلنتّفق أن الراوي لن يحسن إيصال الحكاية كما حدثت بالضبط؛ سينحاز لطرف ما حتما! سينسى بعض التفاصيل، يتناسى أكثرها، في الوقت الذي يجهل فيه أهمَّها. في النهاية؛ ستقرأ بصوته وترى بعينيه وتفكّر بمنطقه... مع أنّك غير مجبر على ذلك! إذا أردت رواية حقيقيّة لا تسمعها من إنسان، اصغ إلى شيء آخر... أجل، شيء! فالأشياء لا مصلحة لها في حبْك الأحداث وخلق الأبطال، مرآة حمامك التي تراك صباحا قبل الجميع؛ تميّز أصدق ملامحك وتقبلك بكلّ حالاتك، وسادتك التي تغفو عليها كل ليلة؛ تعرف أسرارك التي همست لها بها سرًا وأنت تحلم، جدران بيتك التي تحتمي بها

وسقفه الذي تعيش تحته على طبيعتك؛ لو أذنت لهم بالبوح لقالوا الكثير... عنك تحديدا!بيتك عموما... حيث ترقد ذكريات أنت نفسك نسيتها، فذاكرة الأماكن تتجاوز ذاكرة البشر أحيانا!
على ذِكر "البيت" الذي قد نختلف حول مدلوله... هل هو أوراق ملكية أم مفتاح في سلسلة مفاتيح؟ هل هو الباب محكم الإغلاق الذي يقوى صد عواصف الأيام؟ أم هو دفء؛ ألفة؛ أمان وانتماء؟ أم كل هذا؟! لكننا سنتفق حتما -الآن أم لاحقا- أن البيوت أكثر من يعرف أصحابها... أكثر من تحفظ الأسرار... فلِمَ لا نسمع منها؟!
ولأنّ مجلّتنا تسعى لتقديم كل ما هو مختلف، ترقبوا ابتداءً من العدد القادم ركنا جديدا معنونا ببريد القرّاء. لن يكون مجرّد حشو للمساحات الخالية في صفحاتنا ولا بابا للتسلية لقارئ يمضي الوقت ريثما تأتي الحافلة أو يحضر له النّادل القهوة... بل سيتم من خلاله نشر رسائل حقيقيّة وواقعية لا تخلو من المصداقية، لموضوع سبق وسلّطنا إضاءة خافتة لجانب منه في مقال بعنوان "بيوت تنادي أهلها". تنتظركم التغطية الأولى من نوعها لحكايات وأسرار في قالب سردي جذاب مع جرعة من الوصايا والتّجارب المجانية. دمتم أوفياء!)
وعلى ظهر الورقة كان مكتوبا بنفس الخط: (**أول خطوة هي أصعب خطوة، لكنها أهم خطوة أيضا. متأسفة لكوني أخذتها بدلا عنك؛ لكن الاستمرار عليك بعد الآن. سنكون كل ما أردناه، متيقّنة من ذلك وسأذكّرك يوما. كن مستعدا! قد نلتقي بأمانينا في نهاية السنة. – سارة-)**
نظر إلى الرزنامة المجاورة، سحب قلمه وأضاف (بخطّه هذه المرة): و**التقينا بها فعلا!**
ثم طوى الورقة واحتفظ بها في جيب قميصه باسما، جمع ما بقي له في المكتب من أغراض... كانت آخرها لافتة تحمل اسمه مرفقا بمنصبه -المحرّر جواد مغني- وهمّ بمغادرة الغرفة دون أن ينظر وراءه؛ تاركا استقالته على مكتبه، الاستقالة التي كتبها بعد أسبوع من توظيفه في المجلة ولم يتجرّأ على تقديمها إلا بعد مُضيّ خمس سنوات!

خمس سنوات لا يروق له أن يذكر منها سوى آخر سنة؛ السنة التي صار فيها هو و"سارة" مشرفين على الركن الجديد بالمجلة.

هناك... في الممر المؤدّي إلى الباب الرئيسي، صادف رئيس التحرير، رجل أشيب ذو هيبة ووقار فشلا في اخفاء نظراته الذئبيّة التّي تطفح بالاستغلال، استقبل "جواد" بحفاوة مبالغ فيها قائلا:

- هل ستغادرنا حقّا؟ إذا غيّرت رأيك، اعلمْ أنّ مكانك محفوظ بيننا!

ردّ "جواد" ببرود:

- لا أظن أن المجلة بحاجة إليّ يا مدير، لقد ذاع صيتها بما يكفي ونسب التوزيع في ازدياد.
- لا تُنكر فضلها عليك أيضا، ثمّ أن لتوجيهاتي دور لا بأس به... رفضي لمقالاتك لم يكن من فراغ، كنت أدفعك لتقديم أحسن ما عندك.

رمقه المحرّر بنظرة ناريّة دون أن يتكلّم؛ فلم يعد يرى نفسه مجبرا على إظهار الاحترام حياله، ثم واصل طريقه قبل أن يستغل مديره الفرصة لإلقاء إحدى خطبه العصماء كما جرت العادة.

تراود إلى ذهنه مشهده معه يوم مقابلة التقديم لوظيفة بالمجلة، وسؤاله النموذجي له: ماذا يعني لك الإعلام؟ وكيف يكون الصّحفي برأيك؟

فكانت إجابة "جواد" دون تفكير: "الاعلام ليس تجارة والكتابة عن واقع الناس ليست مِنّة من الصحفي، أو استعراضا انشائيا لخطابته، غاية الصحفي الأساسية ليست استعطاف فئة لا وقت لها لتصفُّح الجرائد والمجلات؛ فما يهمّها في الأخبار هو أسعار النفط وتداول العملة، ولا حتى إظهار الدعم لفئة تستعمل الصحف في كسب قوتها ولفّ القراطيس والتنظيف و... في كل شيء عدا القراءة! الغاية الأولى هي التأثير على أصحاب القرار والمسؤولين وتذكيرهم أنّ هناك سلطة رابعة لهم بالمرصاد دوما." وكان ردّه ذاك كافيا ليعيّنه ضمن فريق المجلة.

رجّح "جواد" في البداية أنّ لاسم المجلة علاقة بنور الحقيقة أو نور اليقين؛ ليكتشف لاحقا أن "نور" هو اسم البنت الصغرى لمدير المجلة... لا أكثر، وأنه حين اختاره لم يأبه بمضمون إجاباته المثاليّة في المقابلة بقدر ما أغراه نظمه للكلمات جنبا إلى جنب.
دخل هنا طامحا في إحداث التغيير نحو الأحسن وتبصير الجماهير بحقوقها، عازما أن يخاطب كل العقول مهما اختلفت مستوياتها، وانتظر سنوات كي تلقى كلماته مكانها على صفحات ينتظرها الناس شهريًّا، في مجلة اقتصر نشاطها على حشو الصفحات بكلام لا جدوى منه، وعنونته بجمل ملتهبة لا تمتّ للمضمون بصِلة، وها هو الآن يخرج قبل أن يتغيّر هو شخصيا وكلّه يقين أنه لن يعود إلى هنا مجددا.

مرّ بالاستقبال واستودع لدى الموظفة هناك بطاقات دعوة لحفلة عرسه بأسماء الزّملاء، ثم غادر مقر عمله في محاولة وداع فاشلة.

الفصل الأول

...

العائلات السبعة

- أي عائلة ستتشكّل؟ -

"وجوه العائلة عبارة عن مرايا سحريّة، وبالنظر الى أوجه
الأشخاص الذين ينتمون إلينا،
يمكن معرفة ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا! "
- غيل لوميت بكلي-

... الرسالة (١)...

عندما تُقرّر أخيرا أن تخرج عن صمتك وتحكي حكاية؛ لن تختار نشأتك كبداية؛ ستكون فكرة تقليدية جدا، وصعبة نوعا ما؛ فلا أحد على وجه الدّقة يمكنه تحديد الحدث الذي بدأ منه كل شيء.
ربما أكون قد بدأتُ منذ اللحظة التي أشار فيها "عبد المالك" إليّ لأخيه بنِيّة امتلاكي، قطعة الأرض الفسيحة التي لم يضع أحد يده عليها بعد! ولِم لا تكون بدايتي حين رسم المعماري مخطط هيكلي، وصمّمني حجرة حجرة بيد واثقة؟ لكنها بدايات لا تروقني، ولذات السبب لن أبدأ من أول يوم رُفعت فيه أساساتي، ولا بأوّل ساكن حصل على ملكيّتي!
أعتقد أن كل شيء بدأ حين اكتملت المجموعة، واستطاعت هندستي العتيقة لأول مرة وبعد خمسين عاما أن تجمع سبع عائلات. لست ناطحة سحاب أو مجمعا سكنيا؛ فذاك أقصى حد أمكنني استيعابه.
بغض النظر عن دلالات "السبعة" كرقم... في القرآن، في الكون، في الحياة؛ السماوات والأرض... أيام الأسبوع... قارات العالم... عدد البحار... عجائب الدنيا... ألوان الطيف... علامات السلم الموسيقي... مدارات الالكترون... كما لو أنّ الرقم ترميز إلى كمال الأشياء؛ هناك شيء آخر دفعني لأروي حكايات وقعت داخل أروقتي وخلف أبوابي؛ شعورٌ بأنّ شيئا ما سيحدث ولابدّ من سرده قبل أن تتداخل الأحداث ولا أعرف بأيّ منها سأبدأ، لا تستخف بي فلي سوابق كثيرة مع البشر؛ لذلك ثق أن لي شيئا من الخبرة! في الحقيقة... استشعرتُ مؤخرا أنني على مشارف النهاية، بدأتُ أفقد في السنوات الأخيرة أقراني؛ يُهدمون يوما بعد يوم دون موافقتهم؛ ليحلّ مكانهم مشروع استثماري ضخم يستلمه مقاولٌ ملفه خالٍ من رخصة هدم الذّكريات، ومع ذلك يلقى القبول!
إليك بعض التفاصيل عنّي ربما تقرر يوما زيارتي، لكن احذر أن تسوّل لك نفسك وتفكّر في امتلاكي؛

يمكنك أن تناديني عمارة أو بناية أو شيئا مرادف؛ فالألقاب لا تهمّني كثيرا، يقارب عمري المائة عام لكنّه غير مقيّد بالسّجلات، لي طراز أوروبي فريد جمع بين العراقة والأناقة؛ فرغم ما مرّ من سنين لا أزال أحتفظ بزخارفي المنمقة وأعمدتي الشاهقة، بُنيتُ إبان حقبة استعمارية وكان ذلك تحت إشراف مهندس متمرّس من المعمّرين، في عشرينيات القرن العشرين إذا لم تخنّي الذاكرة. لا أودّ أن أبالغ أكثر؛ ففي حقيقة الأمر لست سوى منزل عتيق مبنيّ بإحكام، يعلوه سقف قرميدي ويتربّع على مساحة تُقدّر بنحو أربع مائة متر من شارع رئيسي بقلب وسط المدينة؛ المدينة التي تدير ظهرها للبحر، وبالتحديد في حي هو الآن مهدّد بقرار الإزالة في أي وقت. ما جعلني صامدة كل هذه السنين هو أنّي لم أقم على أساسات مسلّحة بل على تضافر أسياخ حديدية؛ الشيء الذي يميّزني عن عمارات اليوم متماثلة الانشاء، والمفتقرة لكلّ من استثنائية الجمال ومعايير الصلابة.

وجودي متوقفٌ على جرّة قلم لموظف مُماطل؛ يستغل صلاحيّته ليسجّل رقما قياسيًّا جديدًا في تأجيل مطلب إداري، أنا رهن توقيعه وأكون شاكرة له إذا عرقل قرار الإزالة ريثما تحلّ العشرية الجديدة وأتمم قرنا من الزمن؛ فتضمني الدولة إلى آثارها. وسأكنُّ له كل الامتنان إذا ختم بالرفض نهائيا وحوّل ملفي إلى ديوان الترقية العقارية؛ ليتم إدراجي ضمن لائحة تهيئة وترميم البنايات القديمة، ولك أن تتصوّر حالة من يتحدّد مستقبله بناءً على قرار لن يتخذه؛ لكنه مجبر على تحمّل تبعاته وحده.

لا أكلّف الساكنين بي عناء المواصلات اطلاقا؛ فكل الطرق تؤدي إليّ؛ طريق المدرسة، المسجد، السوق، العمل، المقهى، المستشفى... لكنني من طابق أرضي يعلوه طابقين فقط، يبلغ ارتفاع كل طابق من الثلاثة نحو أربعة أمتار، أرأيت أنني مغرية للإزالة؟ في كل طابق شقّتين؛ تقيم في كل واحدة عائلة، لكن أرضيّتي خالفت التوازن وازدادت شقة إضافيّة صغيرة ليكتمل المجموع "سبعة". مهووسةٌ بأن يكون كل شيء مضبوطا متناسقا؛ لدرجة أنني احترمت تقسيم الشرائح الاجتماعية المتعارف عليه منذ القدم، ولم أتنازل عن هذه القاعدة لأي ساكن جديد، فطابقي الأرضي كان من نصيب الطبقة الكادحة،

والطابق الأول جمع دائما الفئة ميسورة الحال، أما الطابق الثاني فللطّبقة المترفة منطقيا.
لي واجهتان... ممّا يجعلني متناقضة، فمدخلي الرئيسي المكسوّ باللبلاب يطلّ على شارع راق، يحتمي بأشجار عملاقة تستغل أوراقها المتماثلة أدنى نسيم عابر لتتراقص بظلالها على ستائر شرف الشقق، اقترنت كل شجرة بعمود نور يحمل فانوسا سداسي الشكل؛ تتزامن إنارته مع آخر خيوط الشمس ليخيّم على المنطقة الهدوء والصّفو. وعلى الرصيف المقابل استقرت المحلات... مشتل الزهور، قاعة الشاي، بائع التّحف ومحل العطور؛ لتعكس أناقة المكان.
أمّا واجهتي الأخرى فشرفها تطلّ على شارع ذو شعبية أكثر، حركة وضجّة أكثر، حياة أكثر!
ينادي فيه الباعة على أسعار سلعهم متغزّلين بما يعرضون، يركض الأطفال خلف الكرة لاستعراض مهاراتهم وتتعالى هتافات الفتيات المشجعات، تتخلل تلك الأصوات همهمات الشيوخ من المقاهي وحكايا الجارات التي لا تنتهي، ولتكتمل أصالة المشهد تنبعث دندنات الطرب من موقف النقل فتنافسها أبواق السيارات، ويغمر عبق رائحة البن المحمص والخبز الطازج أرجاء المكان.
أبدأ بثلاثيّة من السّلالم الرخاميّة تنتهي ببوابة حديديّة فحميّة؛ نُحتت ونُقشت حوافها بعناية؛ مجوّفة بفراغات مُلئت بزجاج المرايا، يتصدّرها مقبض مطلي بماء الذهب؛ ما إن تدفعه تنفتح البوابة على رواق طُوليّ فسيح يكشف جانبه الأيسر عن درابزين من العاج يزيّن السلالم، وفي نهاية الرواق مصعد متهالك من النوع القديم المكشوف، بابه من الشبك المعدني، يحمل إلى الطابقين الأول فالثاني سابقا، قبل أن تتمكن الشيخوخة من مفاصله فتدب في حجرته رعشة وبطئا؛ جعلا الصعود على السلالم أسرع وأأمن.
أحمل نفس الهيكل المعماري منذ أن شُيّدتُ، أَلِفتُ عائلات كثيرة... وجوه جديدة ظهرت وأخرى اختفت؛ أنا الثابتة التي لم تتغير، لكن البشر هم البشر؛ لم تختلف سوى ملابسهم، طريقة كلامهم، اهتماماتهم... والشوارع بما فيها من محلات وطراز السيارات أيضا.

تنخر الهشاشة حاليا أساساتي وتسكن الوحدة ربوعي، بتّ أرعب المارّين، مجرد بيت أشباح على حافة الطريق، لا أحد يعبأ به سوى الأطفال الذين أستشعر خربشاتهم البريئة على جدراني الحزينة أو العاطلين حين يستندون عليّ، لكنني لا أزال أحوي خلف نوافذي ومن وراء أبوابي المغلقة بقايا حكايات، حكايات كثيرة أحاول استجماع خيوطها لأرويها كما يجب مع أنني لم أعد أتذكّر ملامح أبطالها! ربما لأنّ رحيلهم كان مباغتا لا وقت فيه لغلق الباب خلفهم، ولا حتى للالتفات وراءهم والنظر لآخر مرة، رحلوا دون أن يتركوا لي شيئا منهم؛ فتجرّدتُ في لحظة من الصّور والأصوات والرّوائح، ومع ذلك لم أسأم من انتظار خطى جادة تفتح أبوابي أو حتى أياد تقرعها بإلحاح.

صار الخوف يستيقظ معي فجر كل يوم خشية أن يتركني ساكني الوحيد كما فعل الجميع... أوفاهم بالنسبة إليّ؛ مع أنه لم يعش بداخلي بقدر ما عاش البقية، وحده هو من استحق سماع حكاياتي.

أتساءل أحيانا: "أي سبب يجعلني أتماسك إلى يومنا؟ ماذا يمنعني لأنهار بعد أن قُطعت أواصل الوصال بيني وبينهم؟" وحين أفشل في ايجاد إجابة شافية لا أتأخر عن معاتبتي: "أيّ خطأ اقترفته في حقّهم؟ أ لم أفتح أبوابي لهم كما يجب؟ أ لم أسعهم كلهم؟ هل صارت جدراني بين ليلة وضحاها عبئا عليهم لا درعا لهم؟ أين حطّوا رحالهم من بعدي وهل استطاعوا بسهولة أن يألفوا مكانا آخر غيري؟"

يبدو أن غريزة التّملك ليست مقتصرة على الآدميين!... لا أعلم عاقبة إفشاء أسرارهم ولأنني لم أعايش غيرهم لا أعلم أساسا إن كانت أسرارا بالفعل أم مجرد يوميات عابرة في حياة عائلات عاديّة؛ جمع أفرادها المكان والزمان والقدر. كلّ ما أعلمه أنها قد تكون آخر فرصة لي لمناداتهم وقد تكون نهايتي أيضا!

بعد كل ما قيل؛ ألا تغريك جولة قصيرة على عتبات البيوت؟ بيوت ضُبطت الساعات فيها على إيقاع الذكريات. ولأن الباب يشكّل أول انطباع تجاه البيت

وأصحابه؛ ما رأيك أن نقف عند باب الشقق ونسترق السمع والنظر؟ من أجدد إلى أقدم ساكن...
يتبع...

... الرسالة (٢)...

العائلة ـ١ـ
~المعلوم المجهول~

ما العائلة؟
أسماء ختمها لقب واحد فقبلت الجمع في دفتر عائلي؟
أم أناس تشاركوا الدم والجينات وبضعة مناسبات عائلية؟

فقط؟!

بيتٌ من حجرة واحدة كبيرة فقيرة الأثاث، بحمام متر في متر... إذا استرقت النّظر إليه من عتبة بابه ستجده مطابقا للمواصفات العصرية؛ مطبخ صغير مفتوح على صالون واسع غير مزدحم بالأثاث، أمّا إذا دخلته وأمضيت فيه يوما على الأقل؛ ستكتشف أنه أشبه بديكور المسارح، فالصالون ذاته هو غرفة المعيشة والاستقبال والنوم!

لم يكن المكوث في ذلك البيت يحمل أي بوادر للمتعة، ما من شيء يشجّع على البقاء، لا شيء سوى الوحدة والظلام والرّتابة... وبالرغم من ذلك؛ كان صاحبه لا يفارقه إلاّ نادرا! عندما يضطر لرمي القمامة أو اقتناء مستلزماته الضرورية للمعيشة، والتي تقتصر على علب السجائر وأكياس القهوة الفورية –شيئان لا يفارقان احدى يديه- وقنينات الصّودا والمعلّبات والوجبات السريعة، وأحيانا بعض الأدوية عندما تتذمّر معدته من سوء طباعه، أو حين تعترضه نوبة حساسيّة الصّدر اللّعينة.

لا وجود لأي وسيلة تواصل مع العالم الخارجي؛ لا تلفاز ولا جرائد، لا هاتف ولا حاسوب...
الجدران خالية تماما، لا صور جماعية ولا حتى شخصية، لا ساعة حائطية ولا رزنامة تساعد في معرفة أي يوم وشهر من السنة نحن فيه. لحظة! لا وجود لمرآة أيضا... أ هذا سرّ هندامه الغريب؟
جسم هزيل يحتمي بملابس أوسع منه، وجه منقبض الملامح تخفيه لحية كثيفة عشوائية الأطراف؛ لم تلامس شفرة الحلاقة منذ ثلاثة أشهر كأدنى تقدير؛ تتناقض مع شعر رأسه شبه المحلوق كليا.
حركة البيت لم تفرق عن السّابق عندما كان مهجورا، لا صوت يوحي أن إنسانا يعيش هنا إطلاقا إلا في حالتين؛ صوت إغلاق الباب بشدّة عند عودته كل مرّة وكأنّه يلوم نفسه لتنازله ونزوله الشّارع، وصوت سعاله المزمن الذي يزداد ليلا ولا يقوى كبحه. لكن النافذة باتت تُفتح على الأقل لتسمح للبيت باستراق بعض الهواء والنور والصخب من الشارع؛ عساها بذلك تحيى مؤقتا، فهو فلا يتكلم إلا نادرا، ولا حتّى مع نفسه! ألا يخشى أن تتصلّب أحباله

الصوتية من كثرة السكوت أو تضل مخارج الحروف عنده طريقها؟! لكن تعابير وجهه التي تتضارب بين دقيقة وأخرى توحي على الدوام بكلام ما يهتف به عقله ذاك الموضوع على الصامت، حتى عندما يختلفان لا ينطق بكلمة! أفكار متضاربة لا سلطان له عليها، يكتفي بتفريغ غضبه منها متفنّنا برسم وجوه بلا ملامح؛ تُظهر بشكل جليّ كيف أنّ علاقته بالرّسم لم تكن علاقة عابرة في شقة مهجورة كما هو واضح، بل هو عالم لا يستطيع أن يزعجه فيه شيء أو أحد. ورغم ذلك كان الحزن يلازمه كظلّه، يسير معه، يأكل ويشرب معه، ينام معه... يشاركه أنفاسه باختصار!

الباب الوحيد في هذه العمارة الذي لا يُطرق إلا خطئا؛ عندما يسأل أحد المُسنّين عن عيادة أخصائي المفاصل، أو حين يستفسر بعض الأطفال عن شقّة الدروس الخصوصية، وفي الحالتين كان يجيب بلطف رغم الإزعاج .
هل معاملاته تقتصر على قيم الأعمار القصوى والدنيا فقط؟! فهو لا يبذل أدنى جهد ليكون لطيفا مع جيرانه؛ الذين نادرا ما يقابلهم أمام مدخل العمارة، يريد أن لا يلفت انتباه أحد لكنه لا يعلم أنّ التّجاهل ملفت للناس أكثر من الاهتمام !
منهم من يعتبره شابا مغترا أهوجا ومنهم من يراه انطوائيا، لكنهم جميعا اتفقوا أنّ فيه شيء مغرٍ للتجسس عليه، بدليل أن أنظار كل من يدخل البناية كانت تسلّط على بابه تلقائيّا.
أمّا هو فلم يكن يبالي بأحد. أو كان هذا ما يُظهره في بادئ الأمر حتّى شغلوا جزءا من انتباهه دون أن يُدركوا، فالأشياء التي تكون أمامك باستمرار تغريك أو لا تترك لك مفرا إلاّ لتألفها وتتعوّد عليها، ويحدث في كثير من الأحيان أن تجد نفسك مهتمّا بشيء من كثرة تجاهلك له!
لقد حفظ التّفاصيل اليومية لسكان العمارة دون إدراك منه، إذ ترتّبت مواعيد دخولهم وخروجهم واستطاع التفريق بين نبرات حناجرهم وخطوات أقدامهم وتعرّف على أسماء أكثرهم.

مسكنه مجاور لشقة "الحاجة صفية"، كانا في الأصل شقّة واحدة؛ تشاركهما شقة "الأستاذ حافظ" الطابق الأرضي نفسه.

سكن "فيصل" مع مطلع العام الجديد وقد قارب قدومه الآن ثلاثة أشهر.
"فيصل"؟ لا أجد الاسم لائقا به أبدا، لكنّها كانت إجابته بعد برهة تفكير لا يتطلّبها سؤال بديهيّ كهذا؛ عندما سألته السّيدة العجوز عن اسمه قبل أن تسمح له بمجاورتها، دون أن تطلب منه وثيقة إثبات شخصية أو التوقيع على عقد.
شاب وحيد بلا زوجة ولا أولاد، ليست له عائلة يبادله أفرادها الزيارة، لا وظيفة حقيقية له ولا أي اهتمامات تُذكر... مجرّد فرد مستأجر لغرفة له فيها حضور متواصل لنفسه مع نفسه، يراجع خلاله قرارات حياته ويعيد تأييدها على الأغلب.
يتصرّف "فيصل" كما لو أنّ كتاب حياته مفتوح في صفحة باهتة اقتُطعت الصفحات التي تليها، فيعوّض ذلك بالغوص في عالم حبريّ تحت وطأة المصباح اللعين الذي تتراقص اضاءته في الشقة؛ يطالع كتبا غريبة حول علم الوساطة الرّوحانية، الأكيد أنها هي التي رمت به على عتبة البناية.
لو أُعيد شريط الأحداث إلى الخلف بقليل، لظهر "فيصل" وهو يسأل عن أحد العناوين النادرة لكتب عن التّخاطر والمجال السيكومتري والباراسيكولوجيا عند السيد" جلال"، بائع كتب قديمة في الشارع الرئيسي للعمارة، أغلب الظّن أن أحد المثقفين دلّه عليه.

يقف "جلال" في زاوية على بعد مترين من بوابة العمارة، يبدأ عمله عند فجر كل يوم، فيصنّف كتبه بالشكل ذاته بنفس الحماس دون كلل ولا ملل ولا يفارق طاولته حتى توشك الشّمس على الغروب، يستحيل أن تسأله عن كتاب وتكون الإجابة "لا أعرفه"، جبّار الذاكرة رغم هرمه، لكن شغفه بالكتب لا يتجاوز حفظ العناوين وأسماء المؤلفين والناشرين وسنة الإصدار. قبل أن يمتهن بيع الكتب كان حارسا للعمارة ومقيما بصفة مؤقتة في الحجرة التي يعيش فيها "فيصل" حاليا، بعد أن وجد هذا الأخير مبتغاه من كتب عنده، كان قد نجح في كسر حاجز أول لقاء معه، ولأنّ "جلال" يحب إظهار معرفته بأصل كل

شيء؛ راح يروي له قصص من مّروا على العمارة وبالأخصّ السّيدة "صفيّة" ومما لفت الشاب إليها؛ احترافها لقراءة الأفكار والاستبصار فطلب منه على الفور التوسّط له عندها، بعد أن أظهر له حاجته الماسة للقيام بدراسة حول الإدراك الفائق للحواس.

لكنّ الشّقة كانت أحوج لساكنها الجديد منه ومستعدّة لاستضافته دون موانع؛ ظنّا أن حالها سيكون حال الشّقة التي تعلوها بطابق، وراحت تمنّي نفسها... لن تكلّم الجدران بعضها بعد اليوم وستُستبدل بواقي الورق الحائطي التي تغذت منه الرطوبة بدهان حيوي اللّون أو خزف مصقول يشدّ أزرها، أخيرا ستعوّض الأرضية الاسمنتية ببلاط أملس وستتحرّر أركان السقف من أغلال العنكبوت... والأهم أنها ستنافس باقي الشّقق في استقبال الأشخاص؛ قاطعة على نفسها العهد بأن تكون أكثر منهم احتضانا وكتما لأسرار أصحابها.
لكن كل شيء ظلّ على حاله وكانت الخيبة والكآبة الإضافتين الوحيدتين لها، عندما دخلها أول مرة محتضنا صندوقا من الكرتون يحمل فيه أغراضه، لم تستطع الشّقة إلى الآن كشف ما فيه فلا يزال إلى يومنا منزويا في ركن من الشقة؛ كما لو أن صاحبه يوّد أن يكون مستعدّا إذا قرّر المغادرة فجأة!
يتبع...

... الرسالة (٣)...

العائلة ـ٢ـ

~ المالكيّان ~

« العائلة التي أتيت منها ليست بأهمية العائلة التي ستُؤسّسها »

-رنج لاردثر-

و المعنى؟...

أيّهما أهم؟!

أكثر الشّقق تميّزا؛ فإلى جانب موقعها في الطّابق الأول من الواجهة الرّاقية، هي الوحيدة التي تمتلك شرفة بحجم احدى حُجرها الخمسة الأخرى. شرفةٌ مكشوفة تطل على الشّارع العمومي فتضيف للعمارة من الخارج شكلا مميّزا، تتخلّلها فتحات ضيقة صغيرة تسلّلت من خلالها سيقان نبات "الجهنميّة" المُتسلّق فأحاطتها من كل الجوانب ورسمت حدودها.
وأكثرهم حركة وضجة أيضا! لقد تردّد عليها زوار كُثر مؤخرا... عمّال وحمّالون، أهلٌ من درجات قرابة متفاوتة، والثّنائي الذي سيسكنها مستقبلا، "عزيز" و"حياة".

لامست الشّقة للمرة الأولى شعور التّجهيز لمملكة صغيرة جديدة، وأول خطوة الى حياة مستقلة في ضيفيها الجديدين، خاصة عندما فضّلا أن يهتمّا بكل تفصيلة فيها بنفسيهما، فزادتها تلك التفاصيل راحة وجمالا حين جمعت بين الرّقي والبساطة.
ولا يمكن الإنكار أنّها حظيت بامتيازات كثيرة منذ أن حلّا بها؛ لقد تخلصّت من أرضيتها الباهتة موحّدة الشكل واللون تلك، فعُوّضت غرفة المعيشة بأرضيّات خشبيّة بلون فاتح هادئ تواصلت الى غرفة المكتب باللّون الدّاكن، واحتفظت الجدران بلونها الأسمر الشّاحب أضيفت إليه لمسات من اللّون الأبيض؛ لتتناغم مع لون الستائر مثلما تناغم الأثاث –الذي لم يكتمل بعد- مع الأرضيّات، الملفت للانتباه في احداها -الجدران- هو تخصيص مساحة لجهاز عرض مثبت بالسّقف؛ يعرض محتواه على الجدار المقابل تعويضا للتلفاز واستغناءً عنه، وبالجوار في غرفة المكتب تموضع ركن عمل لشخصين مفصول بمكتبة جداريّة أخذت رفوفها شكل أغصان شجرة خالية من الكتب -حاليا- وبقربها غرفة نوم لم يثبّت العمال الورق الحائطي لجدرانها ولم يُستقَرّ على اختيار موحّد لأثاثها بعد، مفصولة عن غرفة الملابس بباب زجاجي جرّار يلعب دور مرآة أيضا. لتتحوّل الألوان الى استوائيّة منعشة بمجرد دخولك المطبخ مع أرضية حجريّة عتيقة توسّطتها طاولة مُثبّتة، يعلو الكلّ سقف مصمم بخامة خشبيّة أقرب إلى النّمط الريفي، مُشرقة بضوء طبيعي

قادم من الشرفة. أما بالنّسبة للحمام فكان الزّجاج عنصرا طاغيا على التصميم مُكمَّلا بسيراميك فسيفسائي جمع اللّون الأخضر بكل تدرّجاته.

لم تكن كل تلك التّعديلات لتحدث ولا كلُّ تلك المصاريف لتُغطّى لولا ميراث "عزيز"، أو ميراث والده في الأصل، خصوصا وأنّه لم يتخرّج إلاّ من فترة قصيرة لا تكفي إطلاقا ليؤسّس نفسه ماديّا.

في وقت مضى كانت الشقة نصيب والده من تركة جدّه لكن ظروفا عائليّة حالت دون ذلك، وحدث أن استرجعها في آخر أيامه بحرص من السّيدة العجوز –أكبر مالكة للعمارة- مرفقة بتعويض مادي، فتنازل عنها لابنه الوحيد بما في ذلك عائدها المالي. استلمها "عزيز" وصرف باقي المبلغ في تجديدها؛ أملا في محو آثار الأحقاد وبواقي النّزاعات التي احتفظ بها البيت لسنوات.

يحمل "عزيز" اسم جدّه "عبد العزيز"، كان الجد أصغر إخوته، عندما كان في السادسة عشر من عمره وفي فترة عمل فيها بعيدا عن المدينة وعن أهله، توفيّ والده تاركا قطعة الأرض الوحيدة - التي أقف عليها أنا حاليا –. كان احتلال البلاد في السّادسة عشر من عمره أيضا ولأن الأيادي المستعمرة تفنّنت وقتها في نهب الأراضي بشتى الطرق؛ تمّت مصادرتها بموجب مرسوم يقتضي ذلك؛ كونها من أراضي العرش التّلية المصنّفة أثناء العهد العثماني بحكم الأنظمة العُرفيّة آنذاك. ليُشرّع فيما بعد قانون آخر في بداية ستّينيات القرن التاسع عشر، أفاد بتوزيع الأرض من جديد بعد تقسيمها إلى ملكيات فردية قابلة لكافة أنواع التّصرف، وكان من السّهل أن يخلق ذلك روح النّزاع حول ملكيّتها بين الإخوة؛ فأُجبروا على التنازل عنها ونقل ملكيتها للمستوطنين باسم القانون؛ امتثالا لما دعت إليه المصلحة العامة.
لم يكن لعبد العزيز علم بأيّ من هذه الأحداث، فقد استباح الاخوة الخمسة في غيابه مبلغا ماليّا لا بأس به؛ نظير التّنازل ولم يُذكر اسم أصغرهم ليستفيد من ذلك التّعويض؛ بحُجّة أنه لم يعمل في الأرض سابقا مثلهم ولم يكن يقطن في ذات المدينة.

مرّت السّنين وتحرّرت الأرض مثلما تحررّت البلاد، وعادت لأصحابها في هيئة بناية من طابقين، كما لو أنّها فرصة جديدة لتقسيم عادل من الصّفر؛ لكن "مالك" نجل "عبد العزيز" حُرم مثلما حُرم والده من حقه في الميراث، فقام برفع دعوة مطالبا بحقّ والده الذي لم يكن بحاجة إليه، فقد استطاع في السنين التي ظلت فيها القضية مفتوحة أن يجني من عمله أضعاف حقّه المسلوب، وكان على يقين أن هذه الدعوة لن تُحسم أبدا، لكنه لم يفكّر في التّنازل امتثالا لرغبة والده الأخيرة لا أكثر. أراد "عبد العزيز" أن تبقى مؤامرتهم تلك تلاحقهم دائما، لم يسمح لهم بالمضي ونسيانها فأبقى النزاع على الإرث قائما ليرى ويريهم أسوء ما فيهم ويُفاجئ كل مرة بأسلوب دفاع مخز أمام المحكمة، أرادها قصة تعيشها الأجيال الثلاثة حتى لا يتفاخر أحد على أحد وكي لا يخطئوا الادعاء بأنهم عائلة! وبعد قضية أطالت الثغرات القانونية عمرها؛ انتهى النزاع القضائي بمبادرة أبناء الأعمام بإرجاع الحق والتّخلي عن تعصب آبائهم لأن القضية باتت تهدّد سمعتهم ووضعهم الاجتماعي؛ أما المعني بالأمر فلم يسعفه أجله امتلاك الشقة أو التصرف فيها فورّثها بدوره لابنه "عزيز". هذا الأخير لم يكن يعرف من هذه القصة سوى أنه يحمل نفس اسم جدّه، لقد بلغته تتمّتها من زوجته المستقبلية، والتي بدورها سمعتها أثناء جلسة احتساء قهوة ودردشة مع السيدة العجوز "صفيّة".

أُعجبت "حياة " -صاحبة الشقة المستقبلية- بالمكان في أول زيارة له وكانت جدّ متحمسة، راحت تتخيل وتخطط تلقائيا ماذا تضع هنا وأين تضع ذاك. لكنّها لم ترحب بالفكرة كثيرا عندما علمت بأصل الحكاية وبرّرت أنها تريد تأسيس بيت جديد لا سوابق له؛ بيت من الصّفر يبنيانه دون أن تساهم يد أخرى فيه. وكان "عزيز" متفهّما فوصف الوضع بالمؤقت ريثما تتيسّر أمورهما المادية، ولأنها كانت عقلانيّة وواقعيّة إلى حدّ كبير؛ اقتنعت واعتبرت البيت بيتها وعادت تهتمّ بكل تفصيلة فيه، لكن ذلك لم يمنعها من تصفُّح إعلانات العقارات من وقت لآخر بحثا عن وضع مريح أكثر.

يتبع...

... الرسالة (٤)...

العائلة -٣-

~ **الحكيم** ~

«كيف للأفراد أن ينجحوا في أن يصبحوا عائلة واحدة دون أن يُمتحَنوا ببعضهم البعض؟
أحيانا؛ لا يُعرَف معنى الانتماء لعائلة قبل أن يُجرَّب الفقد والخذلان! »

ثاني شقّة في الطّابق الأول، على هامش بابها أُطّرت لافتة كُتب عليها بخط واضح أكثر من اللازم؛ عيادة الحكيم: **أ. سعد الدين -أخصائي الأمراض الروماتيزمية-**
يقود الباب الذي يظل مفتوحا معظم ساعات اليوم إلى رواق قصير؛ ينتهي بمكتب استقبال يقف عليه رجل كبير في السن، ومن ثمّ تقابله غرفتي الانتظار للنساء والرجال تفصل بينهما دورة مياه، وبالموازاة تتمركز غرفة المعاينة وتجاورها غرفة أخرى مغلقة.
أرضية الشّقة رُصفت دون استثناء ببلاط شطرنجي أبيض وأسود، أمّا جدرانها فدُهنت كليّا بلون أبيض تخلّلته مساحات استثنائية؛ عُلّقت عليها إعلانات أدوية وحملات توعية وبعض الرّسومات التكبيريّة للعظام والمفاصل. وعلى جدار أعزل من الأبواب تموضعت مكتبة تقارب أبعاده، وداخلها استقرت مجلدات ومراجع يصعب إحصاءها، مرتبّة بشكل مبالغ فيه حسب سمكها وارتفاعها وتدرج ألوانها، محميّة بدفتين زجاجيتين مُحكمتي الإغلاق؛ تسمح للمقترب منها بالتّأمل لا أكثر.

يُفتح الباب من الخارج يوميا في تمام السابعة والنصف -باستثناء أيام العطل الرسمية- يكون العم "لطفي" -كما يناديه أسعد- قد حضر للعيادة، وبعد إنارة وتهوية المكان يبدأ بترتيب ملفات المرضى ومواعيد كشفهم في مفكّرته، بعد أن يكون قد شغّل موسيقى هادئة للحالات المنتظرة ووضع أغلب الجرائد اليوميّة في متناولهم.
لا يثق دكتورنا إلاّ به، لقد تعرّف عليه في فترة عصيبة من حياته، أيّام كان طالبا متربّصا في المركز الاستشفائي، وقتها كان السيد "لطفي" رئيس الممرضين فاعتبره في مكانة الوالد، وبعد تسوية معاشه بحث عنه وعرض عليه العمل معه. دائما تكون هذه القصة تتمة مديح وثناء لأيّ مريض يسأل "العم لطفي" عن كفاءة الطبيب الذي بالداخل.
وبالتّزامن خلف باب مكتب الاستشارة والمعاينة؛ يكون "أسعد" واقفا أمام المرآة يكرّر روتينه اليومي، يلبس مئزره ناصع البياض ويثبّت في الجيب قلما

مميّزا بالنسبة له، لا يكتب به حتى. تغيّر وجهه دائم العبوس كثيرا عن آخر مرة رآه يبتسم فيها... منذ سنين! يرى نفسه الانسان الأسوأ حظا على وجه الأرض؛ ذلك لأنه لم يكن له نصيب ولو بجزء صغير من اسمه "أسعد"، ثم يتأمل مظهره بذات الحسرة وقد خطّ الزمن خطوطه على شكله؛ فرسمت التّجاعيد لوحة سريالية على مُحيّاه والتهم الشّيب الخصلات الأماميّة من شعره الكستنائي المسترسل، تقوّس ظهره وبرزت ترهّلات بطنه... كلّها تغيرات طبيعية لرجل أربعيني لا يزال محتفظا بملامح الوسامة.

يجلس بعد ذلك خلف مكتبه مستعدا لاستقبال مرضاه... الإقبال كبير على عيادته رغم أنه لم تمض خمس سنوات بعد على استقالته من القطاع العام. لم يكن لقدراته العلاجية وخبرته يدٌ في هذا بقدر ما كان لمبلغ الكشف الرمزي الذي حدّده .

لقد كان يستمتع بالإصغاء لشكاوي العجائز التي لم يكن لها علاقة بسبب عضوي في المُجمل، فيجد نفسه مطالبا بأن يكون أخصائيّا اجتماعيّا أيضا، لكن سمعه بدأ يضعف تدريجيا بسبب رفع صوته عند مخاطبة مرضاه في أغلب الأحيان؛ فكبار في السن أكثر من يقصدونه. وأحيانا يستغرب اعتراض أحد الشيوخ الذين تجاوزوا السّبعين؛ كيف أنّه لم يعد بمقدوره المشي والرّكض من مكان لمكان كذي قبل، وكم أنّ حركته تباطأت وخطواته تثاقلت، فيكتفي بالابتسامة ويردّد داخله: "صدقني... أنت أصبى منّي!"

قبل تلك الأحداث وفي السابعة صباحا من كل يوم؛ قبيل افتتاح العيادة يكون "أسعد" قد استيقظ ليغادر غرفته ويقفلها كالعادة، كما لو أنها غرفة لا تنتمي الى الشّقة. الشبيهة بغرفة مراهق فوضوي أو طالب في السّكن الجامعي، لكنه اعتبرها في الأصل غرفة مناوباته الليلية، تعوّد على هذا النّمط المعيشي مذ أن كان طبيبا مقيما.

لا تبدو الغرفة مريحة أبدا! تُوحي أن صاحبها مُهمل أو فاقد للرغبة في الحياة، ولعل الاحتمال الأخير هو الأقرب إلى الصّواب؛ كيف يتحمّل البقاء فيها رغم كل ذلك الاكتظاظ المزعج؟! اكتظاظها يؤكد التشخيص أن صاحبها يعاني من الاكتناز القهري دون أدنى شك؛ لديه هوس جمع الأشياء ويشعر بحاجة ملحّة

للاحتفاظ بها، رافضا التّخلص منها مهما كانت تالفة؛ اعتقادا منه أنه سيحتاجها يوما ما. تلال من الأوراق مبعثرة في كل مكان، رزمة صحف ومجلات مضى على صدورها شهور وسنوات، قنينات عطور فارغة وعبوات كرتونية، أدوات وأجهزة معطلّة، تذاكر مواصلات، ملابس قديمة غير دارجة، فواتير مدفوعة وبطاقات، حتى الأقلام الجّافة التي لا تصلح للكتابة وكتب وكراريس مكدسة بلا عناية؛ رافقته طوال دراسته بلا شك!
وسط هذه الجلبة، من الصّعب تمييز سريره المهترئ متجعّد الغطاء دون إمعان النظر، تستقر بالقرب منه منضدة منخفضة أودع عليها صورة قديمة لوالديه؛ فتاة شابة في كامل زينتها ترتدي ثوب زفاف كلاسيكي طويل الذّيل، تجلس على مقعد مبتسمة بخجل ويقف معها داخل نفس الاطار رجل وسيم طويل القامة يشبهه، يرتدي بدلة مطرّزة واضعا يده على كتفها ونظراته هاربة من التحديق في آلة التصوير.
خارج هذا العالم، كان مكتب الاستقبال منفذا جانبيا لمطبخ صغير يتردّد عليه صباحا وعند غلق العيادة،
يبدأ "أسعد" نهاره بكوب من شراب الزّيزفون الدافئ وزبدية من رقائق الشوفان محلاة بالعسل الطبيعي، يعوضها أحيانا بشرائح الخبز الأسمر المدهونة بطبقة رقيقة من زبدة الفول السوداني. وكانت تقتصر وجبة المساء على عجة بيض مع الفطر أو الفلفل الأخضر وطبق الفواكه الطازجة مع الزبادي، ولا ينام دون أن يشرب كوب حليب دافئ خالي الدسم كما عوّدته والدته في صغره. أما بخصوص الغذاء فكان يرضخ لأوامر "العم لطفي" ونظامه الغذائي؛ فلا يستطيع المقاومة ويأكل معه رغما عنه مشاركا إياه أكلات منزلية أعدتها له زوجته وأحضرها معه للمكتب.

يبدو أن هوس "أسعد" بالاكتناز مسّت الحيوانات والنباتات أيضا، أو ربما هي الحاجة إلى ما يؤنس وحدته بمنأى عن فضول وثرثرة الناس، فخصّص لذلك مساحة في الرّكن الجانبي من المطبخ مضيئة ومُهوّاة بشكل جيد، اصطفت فيها أصص نباتاته الخاصة؛ نبات الغار وشتلات من اكليل الجبل والميرمية

والقرنفل والصبار... كان من المُؤيدين أن للنباتات لغة خاصة بها ويستخدمها طبيّا مطبقّا ما يقرأه في كتب الطب البديل، فمذ أن تخرّج ونال شهادته لم يتجرع قرص دواء إلا نادرا؛ كونه بات مقتنعا أنه ما من دواء نافع وفعّال إلا وكان ضارّا بتأثيراته الجانبية، حين لا يكتفي بدوره فحسب خلال دورته في الجسم، لا بد من إحداثه خللا ما أو مضاعفات أثناء مروره ببعض الأعضاء. ولأنه لم يكن راغبا في إثبات نظريته ولا مؤهلا لإيجاد بديل لتلك العقاقير؛ استمر بوصف الأدوية لمرضاه للضرورة القصوى!

يعلو ذلك المشتل الصغير قفص ضخم جمع تشكيلة من عصافير الزينة النادرة، طغى نوع "طيور الحب" من حيث العدد، وكان "الحسون" الأجمل شكلا و"الكناري" الأعذب صوتا.

يتبع...

... الرسالة (٥)...

العائلة ـ٤ـ
~ المُمَجِدِّين~

" قل ما شئت عن الشّهرة وعن اقتحام الأخطار فإن كل أمجاد العالم وكل حوادثه الخارقة للعادة لا تعادل ساعة واحدة من السّعادة العائليّة "
ـحكمةـ

الشقة اليسرى من الطابق الثاني والأخير. كان البيت عاديا، صامتا وكئيبا إن صح التعبير! كأنّ الجدران والسّقف والأثاث عقدوا العزم على إظلام المكان فاستسلمت النوافذ لحُكمهم. منزلٌ مجرّدٌ من أي لمسة أنثوية يمكن أن تعكسها ربة بيت جمالها مريح وابتسامتها دافئة مثل "وداد". لقد حاولت مرارا تغيير ترتيبه الذي لا يزال على حاله منذ ما يقارب الثلاثين عاما، فانتهى بها المطاف أن تغيّرت هي وانمحت آثار حيويّتها تباعا.

كان رب البيت من يُعارض ذلك، العميد المتقاعد "مهران" الذي يُفضّل مناداته بـ "الجنرال".
رجل سطحي خُلق ليعترض فقط، جعل أحسن غرفة صالة استقبال طغت عليها ألوان قاتمة ورائحة أثاث عتيقة، مقفلة لا يستقبل فيها إلا رفقاء الخدمة مرة كل شهر ليتناقشوا في أحد الأمرين؛ السّياسة والتاريخ. وكان جلوس أهل البيت فيها محظورا إلا في حالتين طارئتين تسبقان كارثة؛ حين يعقد لأحدهم جلسة اعتراف أو ليصرّح بقراراته المصيريّة التي تخصّ أحدهم ولا رجعة فيها. أما حجرة نومه فكانت مؤثثة بسرير نحاسي ودولاب مشابه، وفي إحدى زواياها المجاورة للنافذة؛ استقر مكتب قديم الطراز اعتلته رفوف مثقلة بالأوسمة والنياشين، وعلى جانبيها براويز صور لأشخاص صارمي الملامح بنفس الوضعية وبمراحل عمرية مرتبة من الأسفل إلى الأعلى. كانت تلك ذكرياته مع رفقاء الكتيبة.
في ذات الممر تواجد المطبخ وجاورته غرفة الطعام التي لا يجتمعون إلا على مائدتها، وفي نهايته أخذت غرف أبنائه الثلاثة مكانها حسب السّن، اختار أسماءهم نسبة للرتب العسكرية وشعاراتها؛ "رائد" و"سيف" و"نجمة" ورسم مستقبلهم بقلم جاف لا مجال للتعديل عليه دون إخفاء الأثر. كانت "نجمة" مدلّلة أبيها، إلى حد ما مقارنة مع معاملته لولداه التي انتهت به أن سجّلهما في مدرسة داخليّة. ورغم كل محاولات "رائد" و"سيف" المستميتة في استفزاز الإدارة لطردهما؛ لم يجدا مفرّا من قضاء أهم مراحل طفولتهما ومراهقتهما هناك ولم يسلم شبابهما من ذات التّحكم؛ فكانا مطالبين

بالالتحاق بالكلية الحربيّة كتخصص مستقبلي. أمّا شقيقتهما فكان الطور الثانوي آخر مرحلة تعليم مسموح بها.
كان منزلا لا مساحة فيه لشيء من الخصوصيّة، لا صوت فيه لغير دقات عقارب الساعة أو قطرات عالقة بصنبور المياه، ولا حركة من غير تراقص الظّلال الخرساء لساكنيه على الأرضية الفسيفسائيّة. حُجره أشبه بزنزانات يختلي كلّ فيها بنفسه مُمتثلا لقوانين البيت الداخليّة؛ لا دخول ولا خروج بعد الثّامنة ليلا، لا نوم بعد الثامنة صباحا، مشاركة طاولة الافطار والغذاء والعشاء اجباريّة، أيّا كانت الظّروف وكيفما كانت الشهيّة.
كان الزّوجان شخصين وجدا نفسيهما في منزل واحد بناء على إجماع عائلي، فقرّرا أن يتعايشا مع قدرهما، وكانا كذلك حد الفتور! علاقةٌ وجد كل طرف فيها أولويات حياته بعيدا عن الآخر فلم يجد فيها داع للانفصال لغياب الارتباط أساسا، أو بتشخيص أدق لم يكن الارتباط متعبا ومسرفا للعواطف حتى يفرض عليهما قسطا من الراحة.
لم يقتصر التعامل بينهما حتّى على التفكير المشترك في مصير أبنائهما ولا على احتياجات المنزل الاعتيادية؛ لأن "مهران" كان الممسك بزمام كل ذلك، فاحتكمت "وداد" التّخبط في فجوة صمت تتفادى فيها خوض أي جدال معه لعلمها المسبق أنه عقيم الحلول! هذا للأسف ما يفرضه التّعامل مع شخص حاد الطّباع مثل "مهران"، يتخذ وضعيّة الهجوم عند خوضه أي حديث. ولم يكن موقف الأبناء مغايرا؛ فلا أحد تجرّأ على الاعتراض على أحكامه واكتفوا بمسايرته أملا في الإفراج ونيل العفو يوما ما.
كانت "نجمة" أول من حصل على فرصة كهذه عندما تقدّم لخطبتها ابن أحد معارف والدها، رغم قسوته مع ابنيه الآخرين ظنّا منه أنه يصنع رجالا؛ إلّا أنه كنّ بعض العاطفة لابنته ولم يرغب في التّخلي عنها لرجل آخر بهذه السرعة، فترك الخيار لها للمرة الأولى. كانت رافضة للفكرة من باب المبدأ لكنها لم تمانع من استشارة شخص يفوقها سنّا وتجربة لتبحث في كلامه عن سبب مقنع تحفظه وتجيب به نفسها إذا ما ندمت يوما على قرارها، ووقع اختيارها على المرأة المسنة المقيمة بالطابق الأرضي التي ردّت بتلقائية دون

أن تطيل التفكير: "أن تتزوجي قبل العشرين في وقتنا هذا؛ هو شيء أشبه بأن تغادري حفلة ليليّة على الساعة الثامنة." لم تفهم "نجمة" جيّدا مقصد العجوز، لكن تشبيه الموقفين راق لها وظلّت تردّد حكمتها من وقت لآخر. في ظروف كتلك، يكون الزّواج عادة طوق النجاة لفتيات مثل "نجمة"؛ لكنه في غالب الأحيان هروبٌ من واقع لواقع لا يقل فظاعة، فعلى الأقل في بيتهن الأول يكنّ قد استطعن خلال سنين حياتهما بناء مكانة محفوظة نوعا ما ونلن الأسبقية والأقدمية؛ شيء يحول دون التنازل عنهن بسهولة، لكن سجلهّن خال من التضحيات والعطاء في بيت جديد ومع أناس جدد؛ عليهن اثبات جدارة واستحقاق من جديد كي يتم التفكير مليّا قبل الاستغناء عن خدماتهن! كانت تلك مخاوف نجمة، أمّا الشّابان فقد كان النفاذ بما تبقّى منهما والفرار من ذلك المنزل ضرورة قصوى، من منزل لن تتغير فيه الأفكار ولن يتغيّر الأشخاص ولا حتّى الأشياء... لن يكون ذلك هربا بقدر ما هو حفاظٌ على صورة مثالية رُسِمت على مدار سنين، قبل أن تظهر عيوبها أكثر ويصعب التّغاضي عنها، وإبقاءٌ على ذخيرة احترام وتقدير تكفي ليتبادلوا التحية دون نفاق. وكان حلّهما المؤقت النظر في الصّمت عسى ردود العيون وايحاءات الملامح كفيلة بجعل من أمامك يفكّر للحظة أنه مخطئ. اتخذ "رائد" و"سيف" خطأ الاعتقاد ذريعة للجنرال، فلا أحد يتعمّد الخطأ أو يتقبّل أن يُنسب إليه؛ يسير المخطئ دوما خلف ما يظنه صحيحا في هذه الحياة، خطأ وحيد فقط يرتكبه عن دراية؛ اعتقاده أنه على حقّ، ثم تأتي باقي الأخطاء تباعا!
هو خوف واحد طاردهما وحقيقة مرعبة وُجب الهروب منها قبل أن تكتمل، احتماليّة أن يكرّر التّاريخ نفسه فيعيشان نفس الحياة بنفس الطّريقة وذات التّصرفات التي ينتقدانها الآن، واحتمالية أن تكون للطّباع جينات تتوارث أو أن يكون المثل "من عاشر قوما أربعين يوما صار منهم" حتميّة صحيحة، فماذا لو كانت ستّا وعشرين سنة أو ثلاثين!

أكثر ما يميّز "مهران" طوله الفارع، عيناه الشّكاكتان على الدوام، نظراته التحذيرية تارة والدونية تارة أخرى، نبراته المتوعدة، غليون التّدخين الذي لا يفارق يده، قدماه اللّتان لم يرأف بهما داء النقرس فألزمتاه الفراش في السنوات

الأخيرة، كتفاه المتهدلتان المنتصبتان سالفا، أضف إلى ذلك جحوده وتسلّطه، مشاعره المتصحّرة وأفكاره الرّجعية التي أكل عليها الدّهر وشرب.
اعتمد على جسده كثيرا فخانته صحّته ولأن "الرّجل المريض" مصطلح تاريخيّ معروف بزوال الهيبة والقوّة، كان لابدّ أن يُمهّد ولداه لانقلاب لم يكن أهدافه النّفي وتولّي الحكم؛ إنما محاولة اللّحاق بما بقي من حياتهما ليستطيعا عيشه كما يريدان، لأنّك لو لم تقم بما تحب؛ أنت تهدر وقتك هباءً!
التحق "سيف" بالجامعة من جديد واختار ليدرس مجال التسويق وإدارة الأعمال كونها قطاعات مضمونة مستقبلا، وانضمّ إلى دورات في اللّغات والبرمجة بعد أن رُفض في أكثر من وظيفة لأن لا شهادات خبرة لديه إلا في الحياة، ولا انجازات ومهارات تذكر له سوى مقاومته حين أُجبر على خوض طرق لم يرغب بها، تماسكه أمام قلة حيلة والدته، اختلاقه الذرائع لتصرفات الجنرال الذي شكّك في صحة خياراته على الدوام، وانتظار نظرة فخر به منه.
ولم تمنعه انشغالاته من انتظار فرصة إتمام شروط ملف طلب الهجرة ليلقى الموافقة، فقد كان طموحه أكبر من ترك البيت.
أما "رائد" فقد كابد عناء بحث مُطوّل إلى أن فشلت علاقات والده المعرقلة في تحطيم حلمه بأن يصبح مخرجا، وحصل على فرصة تدريبيّة في المعهد العالي للسّينما وصناعة الأفلام، لقد تبنّى المقولة "المليارات التي تصرف على المسلسلات بحجة أنها تمثل الواقع لو صرفت على الواقع لغيّرته" لكن ذلك لم يغيّر اعتقاده بأن الوسيلة الوحيدة التي باتت تؤثر في النّاس هي الشاشات... سواء في التلفزيون أو السينما أو الهواتف الذكية!
ظلت "نجمة" الوحيدة التي رفضت الخروج من القفص وتعاطفت مع سجّانها، لم يكن ذلك سمعا وطاعة بقدر ما كان شفقة أو عجزا؛ فهي لم تفعل شيئا في حياتها سوى أنها ذهبت حيثما عصفت بها رياح الأيام دون مقاومة.
لم يعد "مهران" يتحرك كذي قبل لكن صوته ظلّ مجلجلا أركان البيت، بل زادت النبرات حدة والعبارات قساوة، كان يتذمّر لأتفه الأسباب متّهما إياهم بالعقوق والنكران، بات يطالب بأشياء لم يعطها... لكن كلمة عقوق ليست

مقترنة في القواميس بالأبناء وحتى لو كان هذا واردا؛ لن يمنع وجودا لعقوق الآباء بأبنائهم!

لقد أساء فهم التربية على الأغلب، فتربية طفل لا تقتصر على تأمين مأكله ومشربه وملبسه ومكان نومه والتحكم في توجّهات حياته الأولى كونه فاقدا للأهليّة، ومعاقبته على أخطاء قلّد أغلبها من تصرفاتك، ثم تأتي لاحقا وتنسب لنفسك كل خطوة مُوفّقة في حياته، وتطالبه بالتعويض أو تلمح لذلك. إذا كان إنجاب الأبناء وادّعاء تربيتهم استثمارا للانتفاع بهم مستقبلا، فمشروع تسمين العجول أضمن ومربح أكثر... وأسرع أيضا. للاستثمار في الأبناء مفهوم معنوي آخر، أن تهب إهتماما ووقتا لتعزيز سلوك وتنمية مهارة لتحصد أيما فخر وثناء.

ليست الفكرة أن لا حقّ للآباء على أبنائهم أو نكرانا لفضلهم! كل ما في الأمر أن الأولياء الذين يستحقون هذا اللّقب فعلا لا ينتظرون مقابلا، سيكون نجاح أبنائهم مكافئة نهاية الخدمة وتخبُّطهم في أعباء حياتهم كافيا كي لا يطالبوهم بشيء، بل العكس سيواصلون شحذ هممهم مهما كبروا، ولن يتأخروا عن مساعدتهم في الخفاء بدعوة عقب كل صلاة؛ يرجون الله أن يفتح أبواب الخير لهم ويعينهم ويبعد الشرور عنهم.

يتبع...

... الرسالة (٦)...

العائلة ـ٥ـ
~ المحافظين~

«مهما كان الرجل فقيرا، إن كانت لديه أسرة فهو غني»
-دان ويلكوكس-

ثالث شقة في الطابق الأرضي، امتزجت فيها رائحة مواد تنظيف بعطر الخزامى مع رائحة مأكولات شهيّة؛ كافية وحدها لسدّ رمق الجائع دون الحاجة لأكلها، تخطّت كلاهما عتبة الباب لتُثبت أن ربّة المنزل أكثر النساء هوسا بالنّظافة وطباخة لا يُعلى عليها، وأنّها اسم على مسمى "زكيّة"! لم يكن في الشّقة إلا القليل من الأثاث وبعض الصّور والكثير من الكتب... كانت مزدحمة بشيء آخر، بالقيم والفضيلة وروح المسؤوليّة.
كان "حافظ" رجلا مسنا في أفضل صحة، أصلعا وبدينا بعض الشيء، له لحية بيضاء نابتة وشارب ضخم مشذّب، هو باختصار مواطن صالح حازم ووقور، يدفع ضريبته ويسدّد فواتير الماء والغاز والكهرباء بانتظام. كان أستاذ تاريخ في سنوات شبابه الأولى ولأنّ التّاريخ في المناهج لم يكن كما يريده أن يكون! التاريخ عموما وليس في المناهج فحسب، رفض أن يكذب على نفسه وعلى جيل ناشئ كان سيُصدّق كل ما يقوله ويحفظه عن ظهر قلب؛ فحوّل إلى مستشار تربوي.
كان نقيّ السريرة، قويّ البصيرة وودودا للغاية رغما عن ابتسامته التي لا تظهر بوضوح، يملك طريقة خفيّة في جعل من يجالسه يشعر بالارتياح كما لو أنّه يعرفه منذ وقت طويل. لقد أفنى حياته في توجيه وإرشاد الطلاب ليس في المجال التعليمي فقط بل الاجتماعي والحياتي أيضا، وربّى أجيالا على ما لم تقوَ عليه مدارس اليوم؛ التي بالكاد تُلمّ بالمناهج. منذ تسوية معاشه وهو يستيقظ في توقيت عمله السابق، يحتسي قهوته المركزة ويبدأ جولته في المنزل بمنامته المقلّمة ذات الأكمام؛ متفقدا الأوضاع بحركته البطيئة ثم يستقر في الصالة المُنقّذة على كل الحُجر والمواجهة لمدخل البيت.
و كانت "زكية" معلّمة أيضا، سيّدة قليلة الكلام، لا تفارق البساطة أناقة هندامها. كان التدريس رسالة حياتها قبل أن يكون مهنة تأخذ مقابلها راتبا نهاية كل شهر.أُحيل كلاهما على التقاعد في فترة متقاربة؛ كانت هي السّباقة إليها لكنها لم تقوَ على التّخلي عن شغفها ذاك؛ فاستسلمت لفكرة الدروس الخصوصية واستهدفت فئة تلاميذ بظروف خاصة وجعلتها مجانيّة، أما "حافظ" فمكث في البيت بين أحبائه مجددا؛ "كتب التاريخ" ليتوافد عليه من

حين لآخر أحد الطّلاب طالبا منه تأطيرا لأطروحة والإشراف عليها. مرّت حياتهما الزوجية هنا بحلوها ومرّها، جمعتهما قبل ذلك صلة القرابة أيّام كان العُرف "ابن العم أولى بابنة عمّه" قائما وإلزاميا، فتمّ الزّواج ضمن عائلة واحدة بتشجيع من الأمّهات حفاظا على الأملاك والميراث. وحدث الأمر ذاته مع أخت "حافظ" وأخ "زكية"، -"وداد" و"مهران"- على سبيل ضمان عدم التّعرض والاستحقاق في تلك المقايضة.
أمضى كلّ منهما ثلاثين سنة من عمره مع الآخر تحت ذات السقف، لم ينم أحدهما خارج هذا البيت ليلة قطّ إلا عندما زار "حافظ" بيت الله مرة ووعدها أن تكون الثانية معها.

كان البيت مُقدّسا وقيّما لأبعد الحدود، احتوى على قدر هائل من الحب، صحيحٌ أنه لم يخطأ مرة وتلفّظ بكلمة حب لها؛ ربما لأن هناك عبارات أهم منها تختصرها، وربما لأنها كلمة مُستنزفة الصلاحية إذا أُسرف توظيفها في الجمل بلا داع، فإذا صارت إلزامية، تعوّد عليها اللسان وأصبح مقامها مقام إلقاء التحية! ولم تسأله هي يوما فأفعاله قالت الكثير؛ لامست ذلك في تصرّفاته، حين يتعمد الخطأ أو يختلق المشاكل ليطلب مساعدتها أو رأيها ويعمل به، حين يفضّل أن يأكل ويشرب بدون ملح أو سكر كي يشجّعها على إتباع التعليمات الصحية، وحين يتصل بها قلقا إذا ذهبت للتسوق وتأخرت عن موعد رجوعها المعتاد بعشر دقائق. لقد عاملها كطفلته ولا حب رجل لامرأة يعلو على حب الرجل لابنته.

ذاقا الأمرّين معا؛ إذ لم ينعما بزينتي الدنيا في بداية حياتهما، فلم يكن وضعهما المادي ميسورا ولم يرزقا بالأطفال إلا بعد سنوات من الأمل والانتظار، رفضا أن يفصح لهما الطبيب من كان منهما سببا في هذا التأخر وطلبا منه أن يخضع كلاهما للعلاج، وبعد دعاء وتضرّع وابتهال وهبهما الله "هبة" ثم زادهما كرما وفضلا فرُزقا "كرم". كرّسا حياتهما لتربيتهما ونجحا في ذلك إلى حد ما، فمواقف الحياة تربّي أيضا لكنها لا تتبنى منهج الأحضان أو

المداعبة؛ والعابرون فيها من البشر مؤسساتٌ تربويّة يقدمون دروسا غير مدرجة في مقررات؛ تعلُّمُها مكلّف للغاية!

كانت "هبة" فتاة عشرينية بعمر "نجمة" تقريبا؛ فقد وُلدتا في الشهر نفسه، طالبة جامعية في كلية الحقوق، شخصية منطلقة، عفوية مُحيطة بكل القواعد والأعراف، لا تسكت عن باطل قيل أمامها، ناشطة جمعوية تقضي جلّ وقتها في حضور الندوات والتظاهرات، ولها مدونة خاصة باسم "الانسانيّ"، تحاول جاهدة إبعاد نشاطاتها عن دنيا السياسة، فقد اقتصر مفهومها للسلطات التابعة لها على سلطة البيت أو الجامعة، أما ما فوق ذلك من هيئات فكان عالما ضبابيا لم تعتبر إنتماءها إليه ضرورة. أكثر ما بات يشغلها مؤخرا هو تخصصها المهني مستقبلا، نظرتها للواقع صارت أوضح مما كانت عليه قبل اللالتحاق بالجامعة. حلمت منذ صغرها بالمحاماة، أُعجبت بأدوار المرافعات في الأفلام وشعار "يحيا العدل"، في طريقها الى المدرسة الابتدائية كانت تمر يوميّا بالمجلس القضائي فترى المحامين يدخلونه بهيبة ووقار حاملين روب المحاماة بيد وأوراق القضايا بيد أخرى، حفر المشهد في مخيلتها، رأت أنها أشرف مهنة وأن مسألة استرجاع حقوق الناس والدفاع عن المظلومين هدف مناسب لها، وكان لـ "حافظ" و"زكية" دور كبير في تعزيز الفكرة.
باتت الأسرة تؤسس مؤخرا لبيت آخر أوسع وفي منطقة أرقى؛ بناءً على رغبة الجيل الجديد، وكنتيجة لهذا ستصبح الشقة تحت تصرّف "هبة" لتفتتح مكتب المحاماة وتزاول مهنتها، لكنها اكتشفت مؤخرا أن الحلم وحده غير كاف وتحقيقه أيضا غير كاف ما لم يتطابق مع الواقع، إلتقطت الاستشعارات الخاصة بمنطقها في الحياة مبدأ جديدا؛ "قبل أن تكون محاميا عليك أن تكون قاضيا"، فوضعت على عاتقها مسؤولية اختيار المتهمين المظلومين فقط وتتبّني القضايا النزيهة فقط وتبرئة موكّلها في نظرها قبل تبرئته أمام هيئة المحكمة، وأن لا تستغل روح القانون وثغراته أسوء استغلال! بدا الطريق شاقا فعلا والمضيّ فيه شبه مستحيل بالنظر الى ما حولها من تسيّب وهدر للحقوق، بذلك المبدأ لن تترافع إلا في قضايا الطلاق والأحوال الشخصية!

على وشك التخرج؛ صارت دائرة احتمالاتها تتباين بين موثقة أو محضرة قضائية أو مجرد موظفة إدارية بإحدى المصلحات الحكومية!

أما "كرم" فكان خفيف الدم كغالبية البدينين أمثاله، ثرثارا لا يكفّ عن الكلام ولا عن التساؤل، جمع بين شقاوة الملامح وطيبة القلب، صاحب صوت بهيج ونكت جاهزة على الدّوام، مرح بطبيعته فينتزع من المواقف أدنى سبب ليَضحك ويُضحك غيره. فتى مشاكس في الرابعة عشر من عمره مدلل إلى حد ما، نسخة مصغرّة عن والده من حيث الملامح، متعته الأولى افتعال المقالب وإثارة غيظ الآخرين، يتصرف على سجيّته فلا يعرف كيف يمزح معك أو بالأحرى يتعمد ذلك، له معرفة قوية للغاية بكل أسرار وخبايا المنزل رغم صغر سنّه، طغت على علاقته بهبة الكثير من المشاكسات الطبيعية بين الإخوة.
التحق مؤخرا بالطّور الثانوي فكانت مرحلة انتقالية من حياته جمعت بين الشقاوة والرّزانة وحملت بداية نضج، لم تُغره حياة أخته ليقتدي بها ولا قصّة كفاح والديه؛ فقرّر أن يبحث عن طريق مختصر للنجاح بنفسه، وعزم على معرفة أكبر قدر مما يمكنه معرفته عن الحياة.
يتبع...

... الرسالة (٧)...

العائلة ٦

~ **المُغتنين المُغتربين**~

" لا تسأل الدار عن من كان يسكنها
الباب يخبر أن القوم قد رحلوا

..

ما أبلغ الصمت لمّا جئت أسأله
صمت يعاتب من خانوه وارتحلوا

..

يا طارق الباب رفقا حين تطرقه
فإنه لم يعد في الدار أصحاب

..

تفرّقوا في دروب الأرض وانتثروا
كأنه لم يكن أنس وأحباب

..

ارحم يديك فما في الدار من أحد
لا ترجُ ردا، فأهل الود قد راحوا

..

و لترحم الدار، لا توقظ مواجعها
للدور روح... كما للناس أرواح "

منقول

ما العائلة إلا وطن نعيش فيه، هي الانتماء الأول لأي انسان على وجه الأرض؛

و الوطن ليس فندقا تشكو فيه من سوء خدمة الزبائن وتغادره.

حتى النزيل في الفندق لا يغادر على الفور! يطالب بمقابلة المدير ويعبّر شكواه.

ثاني بيت في الطابق الثاني، بيت منظّم جدا، مثالي جدا، لكنه بارد جدّا جدا... بلا هوية، بلا روح. يصلح أكثر ليكون جناحا ضخما في فنادق الخمس نجوم أو معرضا أثريا للتحف!
تخلّلته لمسات فنية أينما سنحت الفرصة، بطابع عصريّ لم يتجرّد من الكلاسيكيّة؛ أعطى البيت رونقا وعاد به إلى العصور الملكيّة، فالحجرات محددة بأعمدة ذهبيّة منقوشة، الأبواب والنوافذ طويلة تحمل على زجاجها رسومات ملونة، والسقف مقبّب بزخرفات ملائكيّة تدلّت منها بلورات ذهبية جعلت المكان منيرا مبهجا. لتتمم الألوان الجدارية الفاتحة ولمعان المرايا في كل الزوايا تناسق اللوحة وتزيد المكان إضاءة واتساعا؛ فتجد التّحف ونباتات الزينة مكانا لها في ذات اللوحة.
في مدخل الشّقة يستقبلك صالون عريق يطغى عليه لون دم الغزال الأحمر القاني، تتوسطه سفرة دائرية محاطة بكراسي خشبية مع دولاب من نفس الطراز؛ يستند على الحائط ليحمل كؤوسا وأطباقا كريستاليّة. يقف الكل على سجادة شرقية مخمليّة تغطي مساحات لا بأس بها من الأرضية الرخامية.
بيت تملكه أكثر العائلات اهتماما بالمظاهر؛ بالمظاهر فقط! زواياه تجيش بمشاعر العتاب والغضب من تاركيه بعد أن كست ذرات الغبار أثاثه وعششت العثة في مفروشاته، وعند بابه أشباح حقائب حملها أصحابها على عجل في فترات متباعدة.

جمع في وقت مضى بين الثنائي "آدم" و"مادلين" وكان أول وآخر بيت استضافهما بعد غربة.
التقيا في إحدى أمسيات المقهى الثقافي التي ينظمها المغتربون، بعد أن عرّف الجميع بنفسه؛ نوّه "آدم" أنّ اسمها محرّف وأن أصله "ماجدولين" نسبة إلى مدينة المجدل بفلسطين، لأول مرة يرى أحدهم لاسمها معنى آخر غير الكعكة الصغيرة التي تُؤكل في استراحة قهوة، تلك الحلوى اسفنجية القوام المُسمّاة باسم الطباخة التي ابتكرت وصفتها. كانت تلك تسديدة لصالحه، وكان عنوان

الكتاب الذي رغب بمناقشته مع الحضور"ماجدولين-تحت ظلال الزيزفون-" ثاني هدف!
أُعجب "آدم" ببساطة "مادلين" وبُعدها عن التّكلف وفُتن بلكنتها الأجنبية وملامحها العفويّة، أبهره طموحها منقطع النظير وثقافتها، فعرض عليها الزواج بعد ستة أشهر من تعارفهما؛ بعد ثلاثة لقاءات فقط! كانت تلك هي الخطوة الوحيدة التي تضمن له الاحتفاظ بها في حياته لأطول وقت ممكن.
رأى فيها شيئا مميّزا عن باقي نساء بلده رغم كونها من أصول عربيّة، فحين ربط بين نشأتها في بيئة غربيّة وبين التعبير عن رؤاها دون قيود وغياب الرجل من دائرة أولوياتها؛ تأكد أنها لا تمت لأصولها بصلة. وأسرع بطلبه خوفا أن يتراجع إذا اكتشف أن العرق دسّاس وأنها ورثت طباع النّسوة اللاتي تشاركهن الأصل.

رسم صورة نمطية مُعمّمة للنساء العربيات وحاول تفادي عيوبهن؛ كثرة الشكوى والإلحاح، التدخل في الصغيرة قبل الكبيرة، هواية التقليب في خزائن الماضي والتنقيب عن المشاكل أو اختلاقها، الثرثرة والنميمة ونقل أخبار في غاية التفاهة، الفضول القاتل وحب التملك...

لكن المرأة هي المرأة أيا ما كانت جنسيتها ولو كانت قد نشأت في كوكب الزهرة، طباعها ومزاجيتها، عاطفيتها واهتمامها بأصغر التفاصيل... جزء من تركيبتها، وفي غالب الأحيان تكون سلوكياتها تلك ما هي إلا تأثر بطباع الرجل أو تحصيل حاصل لإهماله واستخفافه بالأمور أحيانا، كسله، عناده وادعاؤه للمعرفة، سرعة انفعاله، كتمانه، بروده أو أنانيته...
اختصارا لمقارنة يستحيل أن تكون عادلة وجدل أزلي لن ينتهي؛ لا أحد منهما مثاليّ ولا بوسعه أن يكون كذلك لو تغيّر، لسبب بسيط؛ كلاهما "إنسان" قبل أن يكون "هو" أو "هي"!

لم يهتم "آدم" بكل ذلك؛ كان أكثر ما يزعجه حيال المرأة شعورها بالاحتياج والاحتواء الذي تتوارثه على طول مراحل عمرها، وتمارسه مع أبيها أو أخيها مرورا بزوجها والى غاية ابنها أو حفيدها، لم يستطع تقبّل هذا ولم يفكر

في تغييره، لأنه يعلم مسبقا أنّه اعتقاد ترسّخه المجتمعات الشرقية في بناتها منذ صغرهن. ربما كان لتحكّمات والده ورضوخ أمّه جزء في تكوين شخصيته تلك وربما بالغ حين لخّص المجتمع في أسرته تلك، فرغب في التّطلع الى مجتمعات وشعوب أخرى؛ وكان السبيل إلى ذلك أن يدرس لغات العالم ويصبح مترجما.

وافقت "مادلين" على عرضه... أحبّت حبّه لها أو أحبّت نفسها بعينيه، بدا لها مستفزا، ملفتا، مختلفا، طموحا، صعبٌ توقّع ردّات فعله ومجنون التصرفات أحيانا.
تعرّفت عليه أثناء تحضيرها لرسالة الدكتوراه في علم النفس، زد على ذلك ولعها بقراءة ما تخفيه الوجوه وتحليل الشخصيات والغوص في النفوس، أيقنت أن الحياة معه لن تكون مملة وأنه سيفاجئها دائما بالجديد، وكان ذلك كافيا بالنسبة لها كي تمضي باقي حياتها معه.
ولأن ما يبدأ بسرعة قد ينتهي أسرع، انتهت حياتهما الزوجية أسرع مما بدأت. بعد أقلّ من سنة من ارتباطهما وبعد انقضاء الفترة التي أحب كل منهما وجود هالة الآخر في حياته؛ الفترة التي اكتشفا لاحقا أنهما كانا بالكاد يظنان أنهما سعيدان، انتقلا إلى فترة حافلة بالخلافات والمشاحنات... كان أول خلاف لهما في هذا البيت بعد محاولات ومحاولات من التغاضي، عندما سألها على مائدة الطعام كاسرا للملل والصمت المزمن الذي صار يخيّم عليهما ومن باب إدعاء الاهتمام بشؤونها :
-كيف تسير أمور إعداد الرسالة؟ صحيح... ماذا كان موضوعها؟
ارتسمت على وجهها ابتسامة متعبة وردّت ببرود دون أن تنظر إليه:
-الفكر الدّكوري الشرقي!
لم يكن يعلم أنها قد غيّرت الموضوع الذي ستناقشه ولو كلّف نفسه عناء طرح نفس السؤال قبل شهرين؛ لكانت الإجابة:

- معايير إنشاء أسرة سويّة.

كلّ ما في الأمر أنها استغنت عن عرض المشروع نظريا حين اكتشفت فشلها فيه تطبيقيا!

تحوّلت العلاقة بالتدريج إلى حالة زوجيّة مرضيّة مستعصيّة لا أحد فيها يتصرف على طبيعته؛ كل طرف مجبر على تبرير تصرفاته وأقواله ونواياه للآخر، ملزم بمراعاة قناعات الآخر وشعوره قبل الافصاح عن فكرة عابرة. سرعان ما تخلّيا عن هذه الأعباء وبنى كل منهما جدارا عازلا لا يرى من خلاله محاولات الآخر ولا يسمعه، فتأزّم الوضع أكثر ودخلت حياتهما في موت سريري غير معلن كان فيه زواجهما يحتضر، واقتصرت مواهب كل منهما على اكتشاف عيوب الآخر مرورا بمرحلة الزيف؛ زيف الأقوال والأفعال والنوايا كالإدلاء بعبارات مواساة جافة لتخطّي موقف أو امتنانات وإطراءات ملفّقة في بعض المناسبات. توقفت بهما الرحلة في محطة المقاومة لمجرد الاستمرار، فرفضا قطع تذكرتها حفاظا على ماء وجه علاقة الأمس؛ كي لا يتحولا إلى شخصين يقتلان أجمل ما في بعضهما!

في الحقيقة لم يكونا بكل ذلك القبح. أراد "آدم" في "مادلين" صفات لم تكن فيها يوما ولم يطالبها بها، وتعبت "مادلين" من محاولة فهم "آدم" وأخطأت حين حاولت فهمه أكثر من المطلوب فاكتشفت فيه انسانا آخر. اختُصِرت مشكلتهما في رغبة كل واحد في تغيير الآخر دون أن يُصرّح طرف للآخر بذلك؛ ككأسين فارغين كل واحد ينتظر الآخر ليملأه!

أ لم تُبنى قصّتهما من البداية على أساس الصفات الموجودة في كل منهما، أ لم يُعجبا ببعضهما لذات الصّفات؟ ما الدّاعي لتغييرها؟
أن ترغب في مواصلة حياتك مع شخص آخر هو تصريح مُسبق منك بتقبُّله كما هو بأخطائه وعيوبه ونقائصه؛ التي خِلتها من قبل مُميّزاتَه وكانت سببا في إعجابك به! أنت لا تنتقده... أنت تتناقض مع نفسك وتنتقد اختيارك!

"مادلين" الشخصية المستقلة المتحررة لم تقبل أن يكون "آدم" ضيف شرف صامت في حياتها، اكتشفت أنها تشيّد أسرة من طرف واحد، كأنّها في قارب

يركبانه معا لكنّها وحدها من تجدف لتُوصله إلى برّ الأمان وكان ذلك متعبا جدّا... جدّا!
"آدم" من انتقد دوما ضُعف المرأة وتبعيّتها للرجل؛ رغب في استشعار احتياج "مادلين" إليه في وقت لم يعد يرى فيه سوى أن حياتها على ما يرام به أم بدونه، ومن بين كل الخيارات العديدة التي كانت أمامه ليتدارك النقطة التي وصلا إليها؛ اختار أن يفقد الثّقة في نفسه ثم فيهما!

ماذا لو كان ما تسعى إليه يسعى إليك؟ المفارقة هنا أساسا! لقد أرادا الشيء نفسه لكن القدر لن يجمع أرواحا معا لمجرد أن نواياها كانت واحدة، هو لا يفقه لغة الصمت... لا يكتفي بها، لا يقدّر التريُّث ولا يهتم بعبء المشاعر، هو يؤمن بالبوح، بالوضوح، بالعتاب أكثر! "سقراط" محقّ؛ كان على أحدهما أن يتكلم حتى يراه الآخر.
لو تنازل أحدهما وصرّح بما يريده من الآخر لكانت حكايتهما الآن أجمل، لكانا هنا... في هذا البيت! ربما اتخذا مقولة "الاهتمام يعطى ولا يطلب" ذريعة. ماذا لو منح أحدهما الفرصة للآخر؟ لكن... الفرص تُطلب!و العلاقات أسمى من أن نعيشها على التّكهنات والاحتمالات.
لحظات خصام عابرة كان بوسعها تخليصهما من التّراكمات التي جمّدت علاقتهما لاحقا، وحكمت عليهما بالعيش في حالة تأهب مستمرة لفشلهما. لم يكن الاختلاف يوما سببا للخلاف بين البشر وافتراق طرقهم، إنما هو سوء التعامل مع هذا الاختلاف فرطا أو تفريطا. إذ لا بد للودّ أن يزيد ثم ينقص ثم يزيد من جديد حتى يستمر؛ لا بدّ أن نختلف ونتفق ثم نختلف من جديد حتى نتفق من جديد. لأن ثبات المشاعر يؤول بطريقة أو بأخرى إلى زوالها!

لكن؛ من قال أننا حين نُخذل في الأقرب إلى قلوبنا نكف عن محبتهم؟... بل نستمر!
كل ما في الأمر أنهم يصبحون غرباء عنا بطريقة مهولة رغم قربهم، لا نحسن التّعرف عليهم وملامحهم بالكاد تبدو مألوفة بالنسبة لنا، يلحّ علينا أن نسألهم مرارا: من أنتم؟ ولا نستطيع رؤيتهم كذي قبل مهما أرغمنا أنفسنا.

يُخيّل لنا أنهم كانوا مجرد طيف وحدنا من كنا نراه من وقت لآخر؛ فنكتفي بالتشكيك في وجوده. لذلك لم تنته حكايتهما تماما! اتّفقا على الانفصال بشكل متحضّر وعزم كل منهما أن يسافر من جديد لكن لم تكن وجهتهما واحدة هذه المرة، وعند قيام "مادلين" بفحوصاتها الطبية الروتينية قبل السفر؛ تفاجأت بنتيجة حملها وعوض أن يكون ذلك ذريعة للاستمرار كان دافعا للانفصال أكثر!
لم يتحمّلا أن يعيش طفلهما المستقبلي في بيت لن يتخلص من ترسبات الخلافات والتّناقضات، بيت غابت فيه روح التّوافق، غاب فيه كيان "الحب" بحرفيه "الحياة" و"البقاء"!

وجاء "ماجد" ضيفا جديدا على البيت، عوّض غياب والده الذي اقتصرت علاقته به على تبادل صور ومقاطع فيديو من مسافات تختلف كل مرة، كانت "مادلين" الوسيطة فيها دائما.
تخلّت لأجله عن كل ما كان أولويّا في حياتها، عن طيب خاطر ودون أن يطلب منها أحد التنازل. لا يُعلى على حب الأم "حب غير مشروط". ظلّلت عليه برموشها وحمته من نفحات النسيم –كما يقولون-
ربما كان خوفها الشديد من أن يصيبه مكروه ناتج عن اعتقادها أنها لا تستحقه، لم تفعل شيئا لتستحق عطاءً كذاك، ولم تكن فكرة إنجاب طفل إلى الدنيا وتربيته ضمن خططها الحياتية أصلا.
كانت تنتظر أن تعرف الحياة على حقيقتها، أن تحسم أولا... مسألة إن كان القدوم إلى الدنيا مغامرة تستحق فعلا، أرادت أن تتحقق إن كان هناك ضريبة عيش تُجبر الحياة ساكنيها لدفعها؛ قبل أن تكون سببا في إعمار الكوكب بكائن جديد، كان هذا بالنسبة لها شكلا من أشكال التأمين على حياة طفلها المستقبلي. خاصة وأن تجاربها في تحمل مسؤولية كائن آخر اقتصرت على تربية أسماك الزينة!
أحاطت به إحاطة السوار بالمعصم. لكن المعصم كبُر شيئا فشيئا وصار السّوار يضيق عليه، شبّ "ماجد" وحلّق بعيدا ليبني حياته.

الى هنا... انتهى دور "مادلين"، في حياة "آدم" و"ماجد" وداخل هذا البيت. سافرت من جديد بحثا عن نفسها وعن مهمة جديدة لها!

يتبع...

... الرسالة (٨)...

العائلة -٧-
~ السيدة الأولى ~

"أمور كثيرة قد تغيّرنا، لكنّنا نبدأ وننتهي بعائلة"
-أنتوني براندت-

ليتنا نستطيع أن نصبح عائلة من دون أن نتشارك أحزان وآلام بعضنا البعض،
و ليته من السهل أن نكون كذلك!

الشقة التي لم تغيّر ساكنيها منذ أن شُيّدت العمارة، واضح أن صاحبتها وفية جدا، صفة ينبغي أن تنطبق على امرأة قضت ما يتجاوز الخمسين عاما في بيت بمفردها ولم تفكّر في تغييره، لكنها بعيدة كل البعد عن مثل هذه الصفات!

السيدة "صفية" أو الحاجّة "صفية" كما يناديها أكثرهم -مع أنّها لم تنل شرف زيارة البيت الحرام- مجرد ألقاب اعتادت الألسنة تلفُّظها عند مناداة شخص كبير في السن مراعاةً وإرضاءً له. فصفيّة في الواقع لم تكن هذه ولا تلك؛ هي آنسة تضاربت الأقوايل في تحديد عمرها، سنوات كفّت هي شخصيا عن عدّها. طريق ممدود عبر ثلاثة أجيال مرّت فيه تقريبا بكل الأدوار البنت، الأخت، الحفيدة... تقمصت دور الأم العذراء أيضا، لكنها لم تنجح في نيل لقب "الزوجة".

لا تستطيع تمييز الكذب من الصدق في حكاياتها، ربما لأنها حكايات حدثت فعلا أو نسجتها من وحي خيالها وكانت أول من صدّقها. وكم هو صعب أن تُشكّك في كلام شخص هو مُصدّقه، حتى لو كان يكذب! وليكن... فحتّى خلف الكذب تقبع الكثير من الحقائق.

أرأيت ميزة أن تسمع مني؟!

على حدّ علمي؛ بعد أن أنهى المعماري الأجنبي – الذي لم أستطع حفظ اسمه حتى أتذكّره - تشييدي وقبل أن يستقر أو يفكّر في تعمير إحدى الشقق وافته المنية، فظلّت البيوت مهجورة لفترة لا بأس بها حتى استعادها ملاك الأرض الأصليّون وانتقلوا لسُكناها، ولم تمض سنة على إعمارها إلا واضطرت العائلات الماكثة بالبيوت لمغادرتها. فقد نشب حريق رغم هوله خلّف خمس ضحايا فقط، هذا لأنه تزامن-لحسن الحظ- مع لعب الأطفال في الخارج وتجمع ربات البيوت لدى "صفيّة" للنميمة كما جرت العادة، في وقت كان فيه الرجال نائمين أو يستعدون للعودة إلى عملهم فلم يستطيع أحد منهم النّجاة، وسهّل وجود السّيدات في الطابق الأرضي خروجهن من العمارة، ولأن "صفية" كانت آخرهم لم تسلم من بعض التشوهات التي لم ينجح جسدها في محوها رغم مُضيّ كل تلك السنين!

أصعب ابتلاء جسدي هو أن يُحرق الانسان حيًّا، لا أعتقد أن هناك تعذيبا نفسيا وجسديا أسوء من ذلك. ويُضاعف أكثر إذا حُرق في مكان يُفترض أن يكون الأكثر أمنا له ومع أولئك الذين يجب أن يحميهم؛ في بيته ومع عائلته!

لقد خلّفت تلك الحادثة فاجعة مسّت عائلة بأكملها فقد كان الضّحايا الخمسة إخوة، أمّا "صفية" فابنة عمّهم، كانت لها حصّة في البناية على اعتبار أن لها نصيب في الأرض حسب ما أوصى به والدهم، مع أن الأعراف آنذاك توارثت ذهنيّة إقصاء البنات من حقهم في ميراث الأراضي حفاظا على قداستها، إلّا أن تزويج الفتاة برجل من العائلة كان الاستثناء الذي يُسقط ذلك الحكم، وعلى هذا الأساس حُجزت "صفية" سابقا لأصغر الإخوة - سادسهم-.
رجّح الأهل أن سحابة سوداء تحيط بهم، نحس يلاحقهم وربطوا الضّرر بعين حاسد شريرة تتربص بهم، خاصة وأنها فترة التصقت فيها البدع والمعتقدات الغريبة بالأذهان وصارت شغلهم الشاغل، فحسب قناعتهم؛ مهما كان حسٌّ دعابة القدر سمجا؛ لا يمكن تقبُّل أن تفقد عائلة كل رجالها وتُدان الصّدفة وحدها بهذا الجُرم.
أُلقِيت أصابع الاتهام في الخفاء على "صفيّة" بأنها نذير شؤم؛ لكونها أسّست بيتا بالمفهوم السطحي فقط ولم تستطع تكوين أسرة مثلهم، ولأنّ الوضع لم يكن يتحمّل المجازفة بأرواحهم لإثبات صحة الخرافات أو نفيها؛ لم يتحملوا التواجد في ذلك المكان الملعون كما تهيّئ لهم فتركوه، وبقيت هي بمفردها في العمارة دون أن تبدي تشاؤمها مثلهم. كانت المنطقة معزولة في ذلك الوقت فلم يعلم أحد بالقصة بدليل توافد السّكان بعدها على العمارة.
بعد أن تمّت تغطية آثار الحريق المادية، رغبت "صفية" في تبنّي طفل لتعوّض شعورها بالوحدة وقرّرت أن تكون أمّا له وتتنازل له عن وقتها حاليا وممتلكاتها حين تموت، وفعلا حدث ذلك وأسمته على اسم والدها "عبد الحق" لأنه لم يكن مقيدا في السجلات المدنية، وبعد عشر سنوات من الأمومة؛ أصيب الطفل بسكتة دماغية في جذع الدماغ أصبح بعدها مشلولا بالكامل باستثناء عضلات عينيه، كانت حالة عصبية نادرة، لم يقو بعدها على الحراك رغم وعيه بكل ما يحدث من حوله. عندما فقدت الأمل من علاجه لم تستسلم

بل واصلت التواصل معه من خلال رسائل مشفرة برمش العين وتحريكها في اتجاهات مختلفة لكن ذلك لم يدم طويلا فلم يتمكن من العيش إلا لبضعة أشهر بتلك الحالة! كانت صدمتها كبيرة جدا، رأت في ذلك إشارة يقينيّة لكونها لا تستحقّ أن تكون أمّا بأي طريقة، فتقبّلت قدرها وتخلّت مرغمة عن ذلك.
في أواخر ستينيات القرن العشرين تم تأميم المبنى مثله مثل جميع العقارات التي تركها المعمّرون، وبعد تحديث ملكيتها باسم "صفية" وأخذ توكيل من مُلّاكها القدامى يمنحها حقّ التّصرف المطلق؛ فصلت جزءا صغيرا عن شقتها وعيّنت "السيد جلال" حارسا على العمارة، جعلت تلك الزّاوية مقرّ مناوبته الليليّة واستفادت من وجوده ليكون سمسارا لباقي الشّقق الخمسة، ولم يشكّك أحد في وجود أمر غير طبيعي في بقاءها مقفلة طيلة تلك السنوات، بل أقبل عليها مشترون كل يريد الظّفر بشقة واحدة من عمارة بمواصفات مثالية. لم يتدارك أحد وجودي من قبل؛ بل بدأ التساؤل عن البناية حين طالتني أيادي الترميم عقب الحريق... تستقطبكم المظاهر مع الأسف!
بعدها بمدّة توافدت عائلات كثيرة على العمارة لكن الشّقق لم تكن تقبل بكل من هبّ ودبّ، كأنها كانت تبحث عن مواصفات في ساكنيها مثلما هم كانوا يبحثون! فكم من عائلة كانت على خطوة من توقيع العقد وأخرى دفعت مبلغا مقدّما إلّا أن شيئا كان يحدث بعدها فيُلغى الاتفاق. أن تنجح في إقناع بيت في استضافتك هو أصعب من إقناع امرأة بالزّواج بك... يجب أن تكون ميسورا ماديا، محترما، أنيقا وذا نسب أصيل وسمعة طيبة... والأهم أن يحبك المكان ويألفك!

وظلّت "صفية" لوحدها رغم أن البيوت من حولها عُمّرت من جديد، ولأنّ لا شيء يضاهي قساوة أن تعيش وحيدا في منزل كان بإمكانه أن يأوي عائلة كاملة؛ وجدت لنفسها السبيل إلى نشاط جديد يشغل فراغها ويستقطب الناس من حولها خاصة بعد أن صرفت كل سِنتٍ احتكمت عليه. أضحت عرافّة خبيرة في قراءة الكف والفنجان وأحاطت بكل أساليب التنجيم والتّكهن لتكسب قوتها منها، ضربت الودع فقالت آمالا وسكّنت أوجاعا وزرعت أوهاما؛

وجرّبت حظها في تخمين أحداث قد تحصل والتنبؤ بخبايا الأشياء فقرأت الطّالع وحتى الأفكار.
حتى زيّها آنذاك كان مكمّلا للدور الذي تقمّصته؛ عباءة فضفاضة موحّدة اللون وسبحة من الخرز الملون الكبير معطرة بالعنبر لا تفارق يدها، وشم أزرق مرسوم على ذقنها وعيون مكحّلة، ظفيرتين مثنيتين تسللتا من تحت طرحة خضراء قرمزية وتميمة حماية لقّت عنقها.
كانت متعددة الخدمات... تبارك الأطفال، تفكّ السّحر والطلاسم، تعطّل الأعمال السّفلية وتصرف الجان!
ذاع صيتها على مدار السنين وأقبل عليها الناس المُغيّبة عقولهم دون أن يمنعهم بُعد المسافات، وكلما كان تبصيرها يزداد احترافية كان بصرها يضعف شيئا فشيئا بفعل اعتلال الشبكية السكري، حتى لم تعد عيناها ترى النور، وعاشت سنواتها الأخيرة أسيرة الظلام.

******

البيوت تعكس أرواح أصحابها؛ حتى لو كانت تستوطن أفرادا لا يعرفون أشياءً عن بعضهم، والفضل للأبواب في عزل أسرار الباطن عن فوضى الظاهر،
لكن... هل صُنعت الأبواب لتظل مغلقة؟
إيّاك أن تحكم من خلفها! فخلف كل باب تقبع قصة.

ولا داعي لتعيش عمرا داخل بيت حتى تعرف حكايات ساكنيه؛ بضعة أيام ستكون كافية!

إليك أيامًا خصّت الجميع وكان لها تأثير على الجميع...

يتبع...

الفصل الثاني

...

لعنة لعبة

الحياة لعبة عليك أن تلعبها بمهارة وانصاف معًا قدر المستطاع...
حبذا لو تتحلّى بروح رياضيّة أيضا.
و حتى تكون رابح اللعبة أو خاسرها؛ لابد أن تكون طرفا فيها
أولا... لا يمكنك اللعب عن بعد، لا بد أن تقف للاعبيها ندّا لند!

- ما رأيك بلعبة فيها شيء من المجازفة؟-
لعبة العائلات السبعة!

٢٩ شباط

...
تاريخ يتكرر مرة كل أربع سنوات.

أساطير واعتقادات كثيرة قيلت عن هذا اليوم...!
وفقا للرومان، خلال القرن الثامن قبل الميلاد عُرف التقويم المستخدم بـ "رومولوس"، تبدأ السنة فيه بشهر مارس مع الاعتدال الربيعي وتنتهي في ديسمبر، كان العام كله يقتصر على عشرة شهور فقط ولم يكن الرومان يعرفون شهري يناير وفبراير، لأن التقويم تناسب مع الجدول الزمني للدورات الزراعية، فتشكلت السنة من ثلاثة فصول فقط، الربيع والصيف والخريف، إذ كان الشتاء في نظرهم فصلاً لا يستحق أن تحتسب فيه شهور محددة، لأن ممارسة الزراعة تتوقف خلاله!
ليكون اجمالي أيام السنة ٣٠٤ يوما. فنتج عجز زمني كبير في التقويم بحوالي ٦١ يوما اذ تجاهلوا سدس السنة، لذا خلال فترة حكم "نوما بومبيليوس"و لأن الامبراطورية توسعت ولم تعد الزراعة مقتصرة على أشهر الصيف؛ جعل التقويم مكونا من اثني عشرة دورة قمرية للسنة لتقارب الـ٣٥٥ يوماً، واستحدث شهري يناير وفبراير في نهاية التقويم، مما جعل من فبراير في ذيل قائمة شهور السنة.
وبطبيعة الحال، كان لتقويم يتكون من ٣٥٥ يوماً عيوبه، فبعد مضي سنواتٍ قليلة، لن تصبح الفصول والشهور متزامنة، ولإبقاء الأمور في نصابها أدرج الرومان شهراً كبيساً وتخلّوا عن آخر بضع أيامٍ من فبراير وسبَّب ذلك مشكلاتٍ في كل مكان، فكبار كهنة روما هم

من كانوا يُحدِّدون متى يحل الشهر وأساؤوا استعمال تلك الصلاحية، فاستخدموها ليُطيلوا فترات ولاية أصدقائهم في المناصب ويُخفِّضوا فترات ولاية أعدائهم.
تشير بعض الروايات أن الرومان كانوا يتشاءمون من ذلك الشهر فسعوا بقدر الامكان للخلاص منه سريعا، فقلّلوا من عدد أيامه وحذفوا الـ ٢٩ لأنه أحزن يوم في التاريخ الروماني؛ اذ تمت فيه مجازر وأحداث اعدام أمام العامة وبإلغائه حصلوا على ثلاث سنوات دون هذه الذكرى الحزينة التي تحدث نادرا في السنة الرابعة فقط.
وبحلول عصر الإمبراطور يوليوس قيصر، أصلح التقويم مرةً أخرى وأضاف بضعة أيامٍ حتى يصل المجموع بعد الإضافة إلى ٣٦٥، وتم اعادة ترتيب الشهور. لكن شهر فبراير ظل الأقل لأن "يوليوس قيصر" أخذ يوما من شهر فبراير وأضافه إلى شهره "شهر أغسطس" فصار شهر فبراير ٢٩ يوما في السنة الكبيسة و٢٨ يوما في السنة العادية.

... الرسالة (٩)...

ثبّتتْ "نجمة" سماعتي الأذن وقرّبت الميكروفون الصغير منها، أخذت رشفة ماء من الكوب المجاور وتنحنحت لتسمع نبرة صوتها، شغّلت موسيقى فيروزية في الخلفيّة ثم بدأت:

(ها نحن أعزائي المستمعين على موعدنا مع البرنامج الإذاعي "بولاريس" معكم "النجمة القطبية" من وراء الميكروفون:
صباحكم سعيد أينما كنتم... صباحكم فيروزي
"زروني كل سنة مرة حرام تنسوني بالمرة"
مطلع الأغنية لا ينطبق على هذا اليوم... للأسف هو يزورنا كل أربعة سنوات مرة!
معايدة خاصة لمواليد هذا اليوم الذين يشعرون بقلة حظّهم وعدم مساواتهم مع الآخرين، أعلم أصدقائي أنه ليس منصفا أن تحتفلوا بإتمامكم عاما من حياتكم كل أربع سنوات، وتكون حصيلة ما تلقيتموه من تهاني طوال حياتكم ضئيلا إلى هذا الحد! لكم مني إذن أربع "كل سنة وأنتم بخير"
لا يخفى عليكم أن تفصيلةً كهذه كفيلة بجعلكم أشخاصا استثنائيين مميزين.
سأفتتح اليوم بالحديث عن مواليد هذا اليوم... تتباين الآراء؛ فحسب باحثي علم الفلك إن هؤلاء الأشخاص يتمتعون بقوة الحدس، بالذكاء وسرعة البديهة، وبحظ وافر في الحياة، ويشتهرون بحب المزاح وروح الدعابة. ما رأيكم أنتم؟ مواليد اليوم... هل هذه الصفات تنطبق عليكم؟ شاركونا أكثر ما يميّزكم!
أترككم الآن مع أنغام أغنية "الحياة أمل" لـ ايمي هتاري
شاركوني أسئلتكم!... عناوين المواضيع التّي تودّون مناقشتها!...
ابقوا معي!)
نزعتْ السّماعات وقرّبتها من مكبّر الصوت بعد أن ضغطت على زر تشغيل الأغنية وجلست بعيدا في زاوية من غرفتها.

" بولاريس" هو برنامج إذاعي سمعي عبر شبكة التواصل الاجتماعي، استفادت "نجمة" من ادماج الفيسبوك لنظام البث الحي فاستطاعت تحقيق حلمها في اوستديوها الخاص-غرفتها- وأصبحت تتفاعل مع متابعيها صوتا وتعليقا!
ومعنى اسم البرنامج "نجم الشمال" وهو ألمع نجم قطبي، ثابت ودائم الظهور؛ يستخدم كدليل يهتدي به المسافر وهو بذلك أكثر دقة من أي بوصلة!

منذ أن استقر عقربا ساعة الأمس على الثانية عشر معلنين يوما جديدا و"نجمة" مستيقظة، نامت طول النهار وضبطت منبهها على ساعة الصفر كي تستيقظ. ما إن رنّ جرسه، قامت مسرعة بعد أن ارتدت نظارتها التي أرغمها عليها ضعف نظرها ومشّطت شعرها القصير النارّي بأصابع يدها عشوائيا، ثم حاولت أن تضفي بعض اللمسات الأنثوية على محيّاها لتخفي عينيها الغائرتين بهالات سوداء.
لم ترغب في تفويت أي ثانية من اليوم؛ اليوم الذي على عكس غالبية الناس لا يتكرر إلا كل أربع سنوات... يوم ميلادها!
استغرقت وقتا من التفكير وهي تحاول تعديل ضوابط حسابها الأزرق لحذف تاريخ ميلادها أو حجبه عن مرأى أصدقائها، كانت قد قرّرت وضع جميع معارفها تحت اختبار لترى إن كانوا سيتذكرونها دون مساعدة إشعار على حسابهم؛ سرعان ما تراجعت وتخلّت عن المجازفة بمعايدات يمكن أن تعدّل من مزاجها، حتى ولو على سبيل المجاملة!

عادت خلف ميكروفونها، وعيناها لا تفارقان مرآة منزوية تعكس لها باب غرفتها المغلق خلفها، فاستقر نظرها فيها على المقبض، مثلما أخذت سبابتها وضعية استعداد لايقاف البث؛ تأهبا لمداهمة مفاجئة لعالمها.
(عدنا مجددا أعزائي المستمعين، شكرا على تعليقاتكم...
"سراج" يسأل: هل يمكن أن نلحق الضّرر بالناس رغم حبّنا لهم؟ وهل يعد ذلك خيانة في حقّهم حتى ولو بغير قصد!

"ليلى" محتارة: ما حلّ سوء الفهم؟ وكيف نتصرف مع من يعتقدون أننا أخطأنا في حقّهم مع أننا لم نتعامل معهم حتّى؟
"كمال" ترك سؤالا: ما أصعب الأسئلة في الحياة؟
استفسار آخر لجميلة: ما سبب شقائنا في الحياة؟ وهل من مُسكّن لذلك؟

- لا أعلم إن كنت قد فهمت سؤالك جيدا يا "سراج". في رأيي... أقسى درجات الخيانة لا تقتصر على إلحاق الضرر بأناس أحبّوك، بل تتحقق إن كان أولئك الذين أحببتهم أكثر من غيرهم؛ هم نفسهم من آذيتهم أكثر من غيرهم! أتمنى أن لا أكون قد أضفت على حيرتك حيرة.
-للأسف يا "ليلى" ما من حلّ! بعض الأشياء حتى وإن لم يتم توضيحها تُفهم وبعضها يُساء فهمه بشكل لا يمكن توقعه ولو قيل فيها الكثير. إن سألتني عن موقفي الشخصي، لا تحاولي التوضيح أو التّبرير... اتركي للأيام هذه المهمة فهي بارعة في كشف الحقائق.
-أصعب الأسئلة يا "كمال" ليست تلك التي تحتاج جوابا تفسيريا مطولا، هي ما تقتصر فيها الإجابة على الـ"نعم" والـ"لا"... وأحيانا هي تلك التي يكون فيها الصمت ردا بديلا رغم وجود الإجابة! بالمناسبة، سؤالك صعب أيضا يا "كمال".
-أمور كثيرة يطول شرحها يا جميلة! سوء اختيار وحيد كفيل بأن يكون سببا في شقائنا مدى الحياة...)

استشعرت "نجمة" حركة "مهران" في الرواق فقطعت البث تلقائيا دون أن تفكر، شعرت بالاستياء من نفسها بعد حالة الاستنفار العبثية تلك، تحاشت تحديق المرآة لها بالنظر في ما سبق ودونته كي تشاركه مع متابعيها، جاهدت ملامحها كثيرا كي لا يظهر عليها الانكسار خلف نظرة أو مطة شفاه، واصلت بصوت مكتوم من حيث توقفت بحماس مصطنع، فلم يكن يصغي إليها أحد سواها هذه المرة:

(شعورنا بالتقصير تجاه ذواتنا أو الأقرب لنا يمكن أن يكون سببا أيضا... تجاهلنا لأسباب مشاكلنا الحقيقية واختلاق مبررات نوهم أنفسنا أنها أصل معاناتنا سبب وارد أيضا. لا وصفة علاجية لذلك! جرّبي أن تتصالحي مع نفسك... مع حياتك ومشاكلك؛ صححي قناعاتك واحترمي رغباتك على الأقل!
سأستعرض الآن أفضل خمس إجابات لسؤال حلقتنا السابقة؛ لمن لم يكن حاضرا معنا بالأمس كان السؤال: ما علامات النضج في نظرك... أو بعبارة بسيطة، كيف نعرف أننا كبرنا؟ إليكم الاجابات...
عندما لا يؤثر فينا الثناء والمجاملات.
عندما لا تصبح الماديات والمظاهر تهمّنا.
عندما نستغني عن المجادلة ولا نهتم بإثبات رؤانا للآخرين مهما كنا على حقّ.
عندما نفرح في صمت ونحزن في صمت.
عندما لا ننتظر شيئا من أحد.
أبدعتم أصدقائي... مستمعينا الكرام وصلنا الى نهاية لقاءنا، أتمنى أن تكونوا أفدتم واستفدتم... زوروني كل يوم مرة من الساعة الثامنة لنبدأ صباحنا كعائلة واحدة ونناقش اهتماماتنا، نطرح قضايا ونشارك قصصنا! عسانا نهتدي لحلول ونلهم بعضنا.
موعدنا غدا في نفس التوقيت وإلى ذلك الحين كونوا بخير!
كانت معكم النجمة القطبية)
وابتسمت لمرآتها ثم غدت تفكر في تبرير يرضي من تركتهم خلف شاشاتهم دون سبب وجيه.

كان الاحتفال بأعياد الميلاد في منزل الجنرال شيئا مستبعدا، ليس محظورا ولكنه ليس مهما، ولم تبدِ "نجمة" استياءها لأنه كان يتكرر كل أربع سنوات أساسا.
كان تعليقه مقنعا إلى حدّ ما رغم مبالغته: ماذا فعل فلان في حياته كي يستحق تخليد ذكرى ميلاده كل سنة؟!... أن تستمر في العيش من سنة إلى سنة أخرى ليس انجازا يستدعي الاحتفال !

حتى عيد ميلاده الشخصي لم يكن استثناءً؛ فقد كانت الصدارة من وجهة نظره للمناسبات الوطنية والتّاريخية التي كانت توافق يوما من كل شهر تقريبا... وحده هو "مهران" من كان يتذكّرها، رغم تقاعده والاستغناء عن خدماته لم يزل متمسّكا بانتمائه لوظيفته السابقة.
يُفترض بالإنسان من وقت لآخر أن يغيّر أولوياته وانتماءاته، لأن احتياجاته تتغير، فيكون أمسه لعائلة رعته وحاضره لنفسه وعمله ليكون أهلا لتأسيس عائلة، ومستقبله لعائلة يرعاها حتى ترعاه في آخر أيامه. أن تكرّس اهتمامك لوجهة دنيوية واحدة مدى الحياة هو الغباء بعينه... خاصة في عالم لا ثوابت له، حتى أنظمته السياسية والقوى التي تحكمه تتغير. الانتماء لا يعني البقاء في قمقم الماضي وتمجيد الذكرى بالبكاء على أطلالها؛ الانتماء هو أن تتماشى مع الوقت الراهن مع الاحتفاظ بشيء من الاعتزاز بالماضي دون أن يؤثر ذلك على حاضرك !

لم تكن "وداد" تهتم بهذه التفاصيل؛ كانت الأيام عندها سواء، أو بالأحرى اعتادت أن تشتري هناءها بخضوعها لقرارات "مهران" على أمل أن يذوب ثلج قسوته يوما. من أين لها بتلك القدرة الخارقة التي تجعلها تستيقظ كل يوم لتتعامل مع من حولها بشكل اعتيادي وتقنعهم أنها بخير؟ وهل كانت هي مقتنعة بأدائها التمثيلي ذاك أم غير مدركة أنها تمثل أنها بخير! فبالرغم من مجهودها الخرافيّ ذاك، لم تكن نظرة الانكسار الدائمة في عينيها لتختفي مهما حاولت!
وحدهما "سيف" و"رائد" من كانا يسعدان بهذا اليوم ويحضران الهدايا لأختهما امتنانا لوجودها معهم!
استيقظا مبكرا اليوم... تفاجأ "رائد" أن شهر فبراير لم ينته بالأمس؛ بمعنى أنه لا زال لديه يوم كامل لينهي العمل الذي طُلب منه "تحويل مسرحية صامتة إلى عرض حيّ على خشبة المسرح" دون الحاجة للإحراج وطلب مهلة إضافية من المشرف. ثم تذكّر المناسبة وأخرج من خزانته علبة صغيرة خشبية قديمة الطراز، فتحها ليتأكد أنه مشبك الشّعر ذو الشكل النّجمي الذي

اشتراه واحتفظ به منذ السنة الفارطة ثم وضع العلبة عند باب غرفتها.
كان "سيف" قد سبقه بعلبة أكبر احتوت جهاز تسجيل صوت رقمي مرفق بجهاز ارسال، فوقها بطاقة حملت في طياتها عبارة: "أطلقي العنان لمواهبك لتلمعي في سماء أحلامك"
وكان في تلك الأثناء في غرفته يراجع لامتحان اليوم ومن وقت لآخر تنتابه رغبة ملحّة في إدارة ظهره لتلك الدروس المتراكمة والتهرب منها ولو بالاستمتاع بطقس اليوم، ثم ينظر للساعة ويعود للمذاكرة وبعدها بلحظات يسأل نفسه مجددا:

- لماذا يمتحنوننا في الجامعات؟

فكر مليّا في اجابة ترضي كبرياءه وترغم عقله على فرم تلك الأوراق المتزاحمة، دون رضوخ وفي وقت قياسي، خرج عن صمته بعد ثوان:

- ... لأنهم غير واثقين من تدريسهم طبعا! هذا يعني... اذا نجحت سينسبون النجاح لتعليمهم العالي واذا رسبت سينسبونه إلي. ثم إن هدفهم ليس التعليم الحرفيّ، هم بالكاد يخبرونك بما عليك تعلُّمه لتتعلمه أنت بمعرفتك!

تدارك آخر ما توصّل إليه ثم عدّل عليه مضيفا:

- مشكلة الجامعات أنهم يتوقعون من الطلاب معرفة الكثير من الأمور التي لم يعلّموهم إياها أبدا، ولم يكلفوا نفسهم عناء اخبارهم بضرورة معرفتها! نعم... يبدو لي هذا أكثر صوابا.

أحس بشيء من الحكمة في آخر ما قال فدخل إلى حسابه الأزرق ليشاركه في منشور، على وضعيّته تلك وصلته رسالة على مجموعة المحادثة الخاصة بينه وبين "سيف" و"نجمة"، هذه الأخيرة شكرتهما وبلّغتهما باستلامها هداياها، وتمنّيا لها هما بدورهما سنة سعيدة وطغت كل أنواع الملصقات على باقي المحادثة.

كلّما كبرت "نجمة" انتابها شعور دائم بأن العمر ينساب من بين يديها، وأنها تأخرت على أشياء كثيرة لا تدري ما هي بالتحديد. كان العالم يصغر في عينيها شيئا فشيئا حتى اختصرته في غرفتها، عالمها الصغير الذي لم تسمح لأحد بتخطّي حدوده، كانت تحب عزلتها تلك ومحدودة في تعاملها مع الناس؛ بالأخص من يعرفونها وتعرفهم! فتاة لا تجازف بالمجازفة، تمشي على رصيف الحياة بمحاذاة جدارها، تنتظر أن تأتيها الأشياء من تلقاء نفسها، أن تُؤخذ القرارات عوض عنها، ربما كانت الشجاعة ثوبا سيبدو واسعا عليها حتما إن ارتدته ولربما كانت لتتعثر به عوض أن تحتمي فيه.

لم تكن تخطو خطوة خارج العمارة إلا نادرا، كانت تتردد في غالب الأحيان على شقة "زكية" عمتها وزوجة خالها لكنها خفّفت زيارتها مذ أن التحقت "هبة" بالجامعة، صارت تتفادى التعامل معها كي لا يتّقد قهرها بعد حرمانها من مواصلة تعليمها، تحت مسمى عدم حاجتها للشهادة.

ثم صارت شقة السّيدة "صفية" هي البيت المستضيف الجديد لـ"نجمة"؛ تعلّمت منها الكثير وأفادتها في تخطي العقبات الكثيرة التي اختلقتها دون وعي بنفسها في حياتها... لذلك كان لابد لها من زيارتها في يومها ذاك.

يظل باب السيدة العجوز شبه مفتوح كي لا تضطر للقيام عند فتحه؛ ولا يُغلق إلا عند النّوم، وسط إضاءة خافتة كانت "صفية" في جلستها المعتادة على كرسيها الهزاز، تحجب النّظارة السوداء عينيها المطفيّتين اللّتين أضناهما النّظر إلى الماضي لتشير أنهما غير صالحتين للرؤية، وترسم خيبات الدهر المتكررة قسمات وجهها، تلبس ثيابا لا تمت لهذا العصر بصلة وقد تسللت من غطاء رأسها الأسود خصلات شعر أخذت من القطن لونه وشكله. على يمينها رجلها الثالثة أو عينها البديلة -عصاها- وأسفل قدمها تمدّدت قطتها وكأنها تحرسها.
وعلى أنفاس الصمت وذكريات الآلام الدائمة والآمال الضائعة؛ كانت تتسلى بحياكة خيوط الصوف التي لا تنتهي، عجبا لها...لا تتعب من الغزل رغم أنّ ما تحيكه لا يشبه سترة ولا كوفية، ولأنها تختار الكرات عشوائيا تداخلت

ألوان الخيوط فأضاعت الشكل والمظهر، ربما كانت تغزل ثوب الوصال الأبدي بخيوط من إخلاص فمزجت مع ما تحيكه حنينا وشوقا مكتوبا على جبينها؛ تاركا على تجاعيد ملامحها قصة عميقة الأثر إلى مجهول؛ لم تفصح عنه لأي ركن من أرجاء البيت الخالي الذي تسكنه. قصةٌ أقل ما يقال عنها... لو سُمح لها أن تُعاش كما يجب كانت لتكون قصة جميلة بحق، رغم بساطتها! وفي وضعيّتها تلك قابلت الصورة المثبتة على الجدار في برواز أكلت النار سابقا حافة من حوافه الأربع، كانت لوحة زيتية قديمة يجلس داخلها شاب يافع يرتدي بدلة الثلاث قطع، يعلو نصف ابتسامته شارب رفيع جدا وشعره مُسرّح على الجانب. فتكتفي "صفية" بالنظر صوبها مع أنها لا تراها!

هلّت "نجمة"، بنفس وضعيتها التفتت "صفية" بعد أن تناهى إلى سمعها صوت صرير الباب، انتظرت لتسمع همس الأقدام القادمة باتجاهها فقالت بنبرة ترحيب:

- هذه أنتِ؟ تعالي يا بنيّتي!
- كيف عرفتِ قبل أن أتكلم حتى؟
- أساسا لا أحد يزورني غيرك، ثم أنني أستطيع تمييز خطواتك المترددة الخجولة.

سحبت مقعدا وجلست إلى جانبها وسألتها:

- كيف أحوالك؟ هل تحتاجين شيئا؟

أجابت بصوت عميق النبرة:

- لا... في الأصل أحتاج أن يزورني ضيف آخر، أنتظره كل يوم ليقبض روحي لكنه لا يأتي.

كان ذاك آخر ما يمكن أن تتمنى سماعه نجمة في يومها الذي يفترض أن يكون مميزا فردّت:

- لمَ تقولين هذا؟ لمَ تقومين بعكس ما تنصحينني به؟

- لأنني عشت بما يكفي، لن آخذ زمني وزمن غيري!

تسلّلت إلى وجه "نجمة" ابتسامة شفقة لا تخلو من الفضول فقالت:

- أ لا تردين إخباري بشيء عنك؟ لقد رويت لك كل تفاصيل حياتي على أمل أن تبادليني خاصتك.

تركت عصا الحياكة جانبا وتغيّرت ملامحها في شرود هامسة:

- أتعرفين الشمعة؟ تتلخص حياتي في دور شمعة؛ شمعة رضيت من البداية بأن تحترق من أجل من أحبّتهم عن طيب خاطر لكنها... فقدتهم. وعندما لم تجد من تحترق لأجلهم؛ قامت بحرق الآخرين واحترقت هي أيضا بنار الجميع! هذه أنا...

مطّت "نجمة" شفتها السفلى وقطّبت حاجبيها في حيرة وقالت بعد أن طال انتظار جواب سؤالها:

- الواضح أن سؤالي أزعجكِ، آسفة! أردت أن نتبادل الهموم لا أكثر.

لتدرك السيدة العجوز أنها كانت صامتة تماما ولم تقل جملة واحدة فردّت بجدية بعد أن اتخذ صوتها نبرة مخيفة بعض الشيء:

- همومي ثقيلة كثيرة عليكِ وعبئي سيتفاقم إن أخرجته ولن يسعه قلب أحد، لا يغرّنك ظاهري! أحيانا يا "نجمة" يضطر البعض للعب دور الخيّرين فيتقنوه ويتعلّقون به، تأتي عليهم لحظة يصدّقون أنّهم طيبون فعلا، يحبّون دورهم فيتقمصونه أكثر... لكنهم ليسوا كذلك ولن يكونوا! سيعودون كما كانوا ما إن تنتهي اللعبة، فالطيبة تعني العفو والصّفح والتّنازل عن الحق بطيب خاطر، ولو كان بمقدورهم فعل ذلك لكانوا طيبين من بداية الحكاية.

أمسكت بيدها وراحت تواسيها مع أنها لم تفهم ما علاقة ما قالته بسؤالها!

هكذا هم الكبار؛ لا يضعف بصرهم فقط بل بصيرتهم أيضا فتُعمى عيونهم عن الحقيقة ويغضّون بصرهم عن الحياة. حتى حين يتحدّثون تتلفظ ألسنتهم بالحقائق الدفينة ولا يراجعون الكلام قبل قوله، ودون شعور يتخلّصون من

كافة القيود التي كانت تلجّم حديثهم في السابق. يرون أن قطار العمر قد آن أوان رحيله وأنهم مفارقو الحياة ومن عليها فيصبحون صرحاء زيادة عن المطلوب، ولا يمانعون من تقليب الدفاتر للتّخلص من أعباء آراء كتموها في الماضي، يستغلون أي مناسبة للبوح بها كبركان ينفث حِممه عشوائيا، يفكرون في الحياة بعد موتهم ويمهّدون للباقين فيها سلفا طمعا أن تمشي الحياة من بعدهم كما كانت في عهدهم... أ هو طغيان أم أنانية أم حب سيطرة؟! أم أنها حلاوة روح لا أكثر... بقايا أنفاس أخيرة تنازع قبل الخروج من صاحبها؟

دخلت "نجمة" في صلب الموضوع الذي حضرت لأجله من الأساس:

- في الحقيقة أتيت لاستشارتك في شيء... علمت أنّك كنت خبيرة في قراءة الكف وما شابه، اليوم عيد ميلادي وأردت أن أعرف ما تخبئه لي الأقدار في سنتي الجديدة.

ضحكت "صفية" فواصلت "نجمة":

- أعلم أنّك لا تستطيعين بحكم نظرك، لكنني بحثت وتعرّفت على خطوط... القدر والحكمة والحياة والحب، أنا سأصف لك شكلها وأنت ستحلّلين؛ أساسا أريد شيئا تقريبيا لا صحيحا مئة بالمئة.

ضحكت مجددا وردّت أخيرا:

- معك حقّ! لن أستطيع بحكم نظري، لكن... ليس لأنني لن أرى خطوط راحة يدك بل لأنني لن أرى تعابير وجهك وايحاءات عينيك، وبالتالي لن أقول ما تريدين سماعه وما يبدو مطبّقًا عليك وحدك... اذا أردت يمكنني أن أخبرك أشياء حقيقيّة عنك دون أن ألمس كفّك حتّى؛ قضيت معك ما يكفي لأفهم كيف تفكّر "نجمة" وما تريد!

علّقت الفتاة بانفعال:

- معنى كلامك أنّك خدعت الناس واستغليت نقاط ضعفهم... أ ليس هذا احتيالا؟
- من قال ذلك... هل الناس حمقى ليصدقوا تأويلاتي؟! هم يأتون خصيصا لسماع كلام محدّد يريدون سماعه، وأنا أقول ما أتوا ليسمعوه وآخذ أجرة ذلك. أنا أعطيهم أملا بالمقابل، خيطا رفيعا ليتمسكوا بالحياة، بصيص نور ليفكروا

بايجابية... هل أفرق كثيرا عن معالجي النفسيّات الذي يجلسون خلف المكاتب ويدوّنون في دفاتر ملاحظاتهم؟ ربما أنا أحسن تأثيرا منهم؛
عندما أقول لفلانة أن الغائب لن يعود أريدها بذلك أن تلتفت لحياتها وتكفّ عن انتظار السّراب والعيش في الأوهام لأنّ من كانت تنتظره حتى لو عاد لن يعود كما كان قبل الغياب! وعندما أقول لفلان ينتظرك رزق كبير هذه السنة، سيربط ما قلته له بأي فرصة عمل تُتاح له ويعمل جاهدا ليجني المال الذي حدثته عنه!
و أضافت بنبرة إحباط:

- لم يُخيّل لي أبدا أنّك تصدّقين هذه الخرافات... لكنت نفعتُ نفسي يا بنيّتي! برأيك لو كان الانسان الأناني بطبعه يحتكم على قدرة كهذه، هل كان سيفيد الناس بها؟ كان سيحتفظ بها لنفسه لا محالة!

أدركت "نجمة" أنها تأخّرت حين لمحت من الشباك لون الشمس الأصفر الشاحب وهي توشك على الغروب؛ فهمّت بالمغادرة بعد أن وعدت السيدة العجوز بتكرار الزّيارة.

يتبع...

٢٠ آذار

يوم السعادة العالمي

عادة درجت بين الشعوب منذ ٢٠١٣ وقد خُصّص ٢٠ مارس من دون الأيام لأنه يتزامن مع الاعتدال الشمسي، حين يتساوى عدد ساعات النهار والليل.

كيف يجب أن يُعاش هذا الحدث؟ هل يسأل الانسان نفسه... هل أنا سعيد؟
حسنا... بمَ تقاس السعادة؟ هل بالنجاح، بالمال، بالعلاقات الاجتماعية، بمناخ الحرية؟ أم أن فكرة ربط السعادة بشيء أو شعور آخر خطأ شائع في حدّ ذاته.
لحظة... ما مفهوم السعادة؟ معظم الناس يقرنون تحقيق السعادة لديهم بسدّ النواقص في حياتهم؛ فالمريض يرى السعادة في الصحة والفقير في المال والفاشل في النجاح، في حين أن السّعادة قرار... السّعادة لحظة رضا خالصة. هي لدّة عقليّة قبل أن تكون شعورا حسّيًا!
مهما اختلفت مفاهيم السعادة ومصادرها عند البشر، ستظل غاية الانسان الأولى هي السّعي لتحقيقها، تلك الضالة المنشودة التي يبحث عنها الجميع ويريدها الجميع!
هل السّعادة معدية؟ هل السّعادة الدنيوية ناقصة؟ هل للسّعادة الأبدية وجود أصلا؟ من هو أسعد انسان على الأرض إذن؟! هل لها وصفة جاهزة ثابتة تنطبق مقاديرها على الجميع دون استثناء؟ أم أنّ لكل

انسان وصفة لسعادته الخاصة؟! هل الضحكات والابتسامات مؤشرات حقيقيّة للسّعادة؟ أم أنها بالكاد وهم أو تمويه؟
كلّها أسئلة لا تحتاج أن تعرف إجاباتها كي تكون سعيدا؛ فعندها لن تجد كلمات تحتوي شعورك ولن تهتم بوصفه. قد تبتسم روحك وقد تدمع عيناك وقد يقفز قلبك انتصارا وقد... لكن الأكيد أنك ستتساءل: رباه ماذا فعلت لأستحق هذا؟ وتتمنى لو أنّ بمقدورك توقيف عجلة الزمن عند هذه اللحظة، ستعتريك الرغبة بمشاركتها مع كل من تصادفه لأنها كثيرة عليك ،أو على الأقل ادخار بعض منها لأيامك القادمة فهي جرعة مكثفة بالنسبة لأمثالك؛ تخشى أن تتعوّد عليها... المهم؛ حاول تخليد هذه اللحظة قدر الامكان لأنك ستنكرها بعد أيام، وتعود للتذمر من شعور التعاسة الأبدية راجيا عدالة الدنيا، وستعيد طرح نفس الأسئلة السالف ذكرها!

... الرسالة (١٠)...

توقّفت "حياة" عن التّحديق في المرآة التي مسحتها مُطوّلا ثم خرجت عن صمتها وشُرودها بعد طول تفكير، وخاطبت "عزيز" بظهرها مُتأملةً ملامحه التي انعكست على المرآة، وقد غلّفت البراءة مظهرها بعناية:

- في مثل هذا اليوم منذ سنتين تعارفنا... أعي تماما أنّنا تنازلنا عن تخليد هذا النوع من المناسبات لأنّ لا أحد منا يملك ضمانا مسبقا بتذكره للأبد، وأن الأمر سيتحول بمرور الوقت الى استجواب فجائي سخيف في مادة التاريخ، لكني للأمانة أتوق فضولا لأعرف إن خطرت ببالك أيضا الذّكرى الموافقة لتاريخ اليوم... أ لا ترى أنه يوم مميز من تلقاء نفسه؟!

كان "عزيز" منهمكا في تركيب القطع الصغيرة لثريا الكريستال؛ مستمتعا بنبرة صوتها حين تتحدث عن شيء ما بحماس، ردّ بعد أن تأكد أنها لن تضيف كلاما :

- أيعقل أن لا أذكر؟!... الأحداث المهمة تفرض نفسها ولا تسمح لك بتجاوزها ولو مرّ عليها عشرون عاما، كيف بسنتين صغيرتين؟!

قالت باعتراض:

- سنتان هي مدة طويلة؛ أيعقل أن يمر الوقت سريعا؟

انعقد حاجبا "عزيز" محاولا تخمين ما تصبو إليه تلك الافتتاحية، كان سيجيب دون تفكير:

- التقدير الزمني يختلف من شخص لآخر...

لكنّه تراجع حين شعر أنّ في سؤالها فخا ما؛ فمناقشة نظرية نسبية الزمن آخر شيء يمكن أن تهدف إليه حوارات "حياة". واصل عمله وأجابها بتساؤل يحمل نبرة حنين واستغراب بمقدارين متكافئين، دون أن ينتظر من وراءه إجابة لأنها ستكون حتما متوقعة:

- لو لم نلتق ذلك اليوم، هل كنا سنجتمع يوما ما؟

ارتسمت على شفتيها ابتسامة رضا ظافرة؛ فقد كانت تنتظر سؤاله ذاك بالذّات، وهمَّت بالرّد وكأنّ جوابها كان جاهزا ينتظر سؤاله، لكنها فضلت الرد بما هو غير متوقع فقالت وقد لمعت عيناها ببريق أفكار ومضت في عقلها للتوّ:

- يجب أن تتعلم كيف يكون السؤال؛ مثلا... لو جلست بجانبك يومها فتاة أخرى هل كانت ستكون هنا الآن عوضا عنّي؟

لا أعرف ما سبب مزاجهما المولع باستعادة الذّكريات، من الواضح أنهما سيُعيدان سرد قصّتهما، فالتّحف التي أحضراها معهما اليوم لم تسمعها على الأغلب، سأغطي أنا هذا الحدث التاريخي هذه المرة اختصارا للحظات شرودهما التي لا داعي لها ولبعض عواطفهما المبالغ فيها، والتي لا أثر لها في قصّتهما بالغة التعقيد أساسا. كان تعارفا غريبا؛ لم يكن مجموعة صدف عابرة بقدر ما كان توافقا! وكأنّ القدر لمح شخصين لم ولن يتنازلا يوما لاستنفاذ مشاعرهما في علاقات غير واضحة المسار، فوضع أمامهما عدّة طرق وترك لهما اختيار أي طريق يسلكانه؛ في حين أن كل تلك الطرق كانت ستؤدّي بهما إليهما!

رأيَا بعضهما لأول مرة في المكتبة حيث قدمت حياة لتسليم عمل قصصيّ لها فدلّوها عليه -السّيد مالك- الذي لم يكن له علاقة بذلك الحدث في ذلك المكان، إنما حضر نيابة عن صديقه بطلب منه ليغطّي غيابه. دام لقاؤهما للحظات لا معنى لها، لا تكفيهما حتّى لتمييز ملامح بعضهما... كانت "حياة" أيامها مهووسة بعالم القصص والروايات فارتعبت بمجرد سماع اسمه لأنه كان اسم الشخصية في عملها وتركت المكان فورا. أمّا هو فلم يلحظ وجودها من الأساس، لم يكن لذلك اللّقاء أهمية إلا على اعتبار ما قد سيكون لاحقا وقد

كان! كانت لتلك البداية أهمية في النهاية؛ حلقة الوصل التي جمعت أجزاء الحكاية لتبدو واضحة مقنعة عند سردها، لا أكثر ولا أقل.
تصادفا كثيرا بعدها في النقل العمومي وفي كلية العلوم ولم يكن لذلك تأثير يذكر؛ كان تخصّص "حياة" –رياضيات- يُدرَّس في فرعين جامعيين فكانت تقصد الجامعة الأخرى لاقتناء المراجع، الجامعة التي كان "عزيز" يتردد عليها وهو في آخر سنة من دراسة علم المادة -تخصص فيزياء-. في كل مرة كان أحدهما ينتبه لوجود الآخر دون أن يدرك الآخر، فتناوبا على ذلك مرة تلو المرة.
كل هذه التفاصيل لم يلحظاها إطلاقا بل شكّلاها نسبيّا واستنتجاها بعد فترة تعارفهما الفعلي بمدة، وإذا سُئل أحدهما متى وكيف كان أول لقاء لك بالآخر؟ وماذا كان أول انطباع شكّلته عنه؟ لن يحسن الرد لأنه لا يذكر متى تحديدا بدأ أول كل شيء.
البداية الحقيقيّة التي استسلما لها والتي وافقت تاريخ اليوم كانت حين حضرا نفس الندوة وكانت المقاعد مُرتبة بألقاب الحضور حسب ترتيب حروف الأبجدية.
لم تكن "حياة" تنوي الذهاب يومها وظلّت طول النهار في المنزل، كلما صادفت عيناها عقارب الساعة استفزّها فكرة أن الموعد لم يفت بعد ولا زال بمقدورها الذهاب، إلى أن اتصلت بها صديقتها لاستعجالها فتحجّجت بسوء المزاج والإرهاق لكنها بمجرد أن أغلقت الخط ولمحت عينيها الوقت الحالي وإلى جانب إلحاح صديقتها، استطاع عقلها بحسابٍ بسيطٍ لفارق التوقيت إغراءها بفكرة أنها لو تحركت الآن يمكنها أن تصل في موعدها بالضبط!
الغريب في الأمر أنّها لم تكن تدري حتى ما موضوع الندوة، كانت مبادرة من إحدى الجمعيات التأسيسية خلال جولة في الجامعة لإلقاء محاضرة وحضور ورشة عمل لتطوير الذات فسجّلت اسمها وحسابها البريدي كما فعل الجميع.
كانت جد مهووسة بحضور المناظرات، لا طالما أغراها التفاعل بين المحاضر والحضور فتحمّست للمبدأ لكنّها أُحبطت بمجرد أن علمت بتوجيه كل فرد حسب أول حرف من اسمه العائليّ إلى قاعات معينة؛ أي أنها لن

تجلس بجانب صديقتها وبالتالي لن تستطيع كسر الملل لو لم يرق لها المضمون! دخلت القاعة وبحثت عن المعقد الموافق لرقمها وكان على أحد مسندي الذراع ورقة مثبتة تحمل اسمها "حياة مالكي" ويمكنك التخمين بمنتهى السهولة من كان يجلس بالمقعد المجاور؛ "عزيز مالك" فقد كان اسمهما العائلي شبه متماثل.

كان موضوع المحاضرة التفاعلية " معايير الاختيار في الحياة" وكانت عينا كليهما شاخصة مركّزة لدرجة اللامبالاة بمن يجلس إلى جانبهما، خلالها تطرّق الخبير إلى الخيارات التي تقع تبعاتها على أصحابها بصفة دائمة ولا سبيل لإعادتها دون خسائر فادحة؛ كاختيار وظيفة ثابتة تُمتهن لسنوات، اختيار السكن وما يفرضه من جيرة وبيئة، اختيار دائرة المعارف وتأثيرهم الناجم عن الاحتكاك بهم... وفي كل محور يستجوب أحد الحضور لمناقشة فكرة ما، حتى قاد الحوار إلى نقطة مفادها أنّ مقاييس اختيار شريك للحياة خاطئة في مجملها عند الكثيرين، وأشار إلى "حياة" لتجود برأيها حين لمحها مستغربة المنطق الذي عالج به تلك النقطة تحديدا، فخرجت عن صمتها موضحة بتلقائية: "الأوْلى تصويب مبدأ مشاركة الحياة مع شخص ثان قبل تصويب مقاييس الاختيار؛ اختصارُ العالم في شخص واحد هي وسيلة لمجابهة الحياة سويا وليست هدفا يُسعى إليه، لأن سبل الاختيار في هذه الحالة لن تخرج عن نماذج مكررة... أشخاص يتهربون من تحمل مسؤولية الاختيار فيتنازلون عن هذا الحق لغيرهم ويتفرغون هم لاحقا لإلقاء اللوم، وآخرون اختياراتهم قائمة على مخاوف لا حصر لها، وفئة أخرى تختار بالفعل لكنها لا تملك شجاعة الاختيار خارج ما هو مقترح. عذرا على الإطالة... أردت بمداخلتي الإشارة إلى أنّ المسألة أعمق من التزامات مشروطة لا يجوز نقضها أو مميزات يستحيل التنازل عنها؛ هناك اعتبارات لا تقبل الحصر بالورقة والقلم ولا يمكن ضبط مقاييسها." فالتفت "عزيز" صوبها وعلى محياه آيات الانبهار والاستغراب ظنّا منه أن ما قالته كانت قناعة شخصية انفرد بها وحده، بدليل أنّه راح يهز رأسه تأييدا لكل تفصيلة تُضيفها وانضم إلى النقاش: "أتفق مع الآنسة، معايير الاختيار تختلف من شخصية لأخرى

ولا تؤثر بقدر ما يؤثر الهدف الذي على أساسه يقوم الاختيار؛ ليس مهما أن تكون الرؤية واحدة بقدر أهمية توحيد الوجهة! "

ورغم التّناقضات بين الفيزياء والرياضيات إلّا أنّهما اتفقا في بعض النظريات ونجحت الكيمياء بين الأشخاص في الجمع بينهما في نقاط شتى، وجدا في بعضهما كل المواصفات التي غششها قلبهما عن عقلهما على مدار سنين. لكن "حياة" قامت مؤخرا بالتحويل لتخصص الاعلام الآلي ليس لأن دراسة الرياضيات صارت أصعب وباتت تحتاج نفسا طويلا وتعمقا فقط، بل لتفادي أي اختلاف مع "عزيز"، أي منافسة وأدنى فرصة للمقارنة بينهما بقصد أو بغير قصد.
ولم تنته الصدف الى هنا فقد اكتشفا بالصدفة عند احضار كل منهما أغراضه الشخصية لهذا البيت؛ أن صورة مشابهة قد جمعتهما بينما كانا تلميذين، وأنهما درسا في نفس المدرسة الابتدائية لكن "عزيز" كان في صفّ أعلى.
كانا يرفضان تسمية هذه التّوافقات بالصدف. ربما كانا على حقّ... فالصّدفة هي فقط صدفة في عين من يراها كذلك! وليس من المنطقيّ أن ننساق خلف وهم لا نراه ولا نملك برهانه لمجرد أنّ حدثًا ما في حياتنا توافق مع حدث آخر، أو نعتبره إشارة فقط بناءً على مصادفة غريبة لم تكن -في الأصل- إلا تحقيقا لنظرية الاحتمالات في أبسط صورها! حياتنا مليئة بالأحداث التي نمر بها مرور الكرام فهل نحن مجبرون أن نقف أمام كل صدفة عابرة ونتأرجح بين الاهتمام واللامبالاة في آن واحد، وبين الخوف من احتمال أن لا تكون هذه الصدفة أساسا متينا تقوم عليه الأحداث القادمة في حياتنا؟! وهل رؤيتنا الحدث بعين مختلفة كافية لاعتباره صدفة؟ فكوننا لا نرى وجه الصدف في مواقفنا العابرة لا يكفي لإنكار وجودها؛ مثلما لا يمكن تأكيد وجودها لمجرد أننا نعتقد أننا نراها!

بعد سؤالها الأخير وضع "عزيز" الأشياء جانبا لأنّ الحديث بدا له جدّيا واكتفى بالردّ:

- إنها أقدار! أمور نؤمن بها فحسب ولا يستحسن العبث بماهيتها كثيرا لأنها تفوق إدراكنا. وإن كان التساؤل بدٌّ لا مناص لبالنا منه؛ فلننشغل بالتفكير في الحكمة منها!

عقّبت "حياة" بصوت يشوبه التردد:

- لم أقصد زاوية النظر هذه؛ تساءلت إن كان وجودي معك في آخر سنتين حال بينك وبين أن تتعرف على أناس آخرين... أنسب وأحسن!

"عزيز"... ماذا لو جازفنا بأخذ استراحة؟! ستكون مساحة مشروعة للمقارنة الموضوعية والثبات على اختيار أبدي، وفرصة لنرى إن كان وجودنا معا حتمي بالفعل لكلينا... ربما كنا سنجد أنفسنا في أشخاص آخرين لو لم نعترض طريقي بعضنا!

وأضافت مشيرة إلى الشقة بأداء استعراضي وبصوت خائف مهزوز:

- لأنّ أيّ مقارنة أو إعادة تفكير تلي استقرارنا في هذا البيت وعيشنا تحت سقف واحد، ولو على سبيل شطح الخيال، ستُحتسب اخفاقا لكلينا.

لو كان المصغي شخصا آخر غير "عزيز" لكان أساء فهم نوبة التفكير المزمن تلك، وأخرج من ثنايا كلماتها أكثر من تفسير ضبابيّ، يتخذه ذريعة يبني عليه خصاما نهايته محسومة لصالحه. وسيكون بلا شك على حق، لأنها ترهات لا يُفترض أن تصدر عن شخصين معا باسم الشرع والقانون، ولا يفصلهما عن الالتحاق بخانة المتزوجين اجتماعيّا سوى مراسيم شكليّة كالاحتفاء بهذا الحدث ضمن تجمع بشريّ، يكونان الراعي الرسمي المموِّل له!

لكن يقينا عارما اعتلى أسارير "عزيز" فقال بثقة:

- ما تفوهتِ به للتّو هو أكبر برهان على أنّ اختيارك أبديّ... أزليّ... سرمديّ... أ لم تقولي فيما مضى أنّ الاستقرار لا يقتصر على الشّعور بأمان زائف برفقة

من حولنا؛ لأنه لا يدل إلّا على أن الحياة لم تختبر صحة خيارتنا وقوة علاقتنا بهم بعد، بل الاستقرار أن نعبر عن مخاوفنا لهم دون عناء وتكلف، دون الحاجة لانتقاء أنسب المرادفات، دون وضع اعتبار لردود أفعالهم أو تأويلاتهم الهامشيّة، ودون التفكير مليّا فيما إذا كانوا يهتمون بفهم ما يجول بخاطرنا من الأساس!

لم تبد "حياة" اقتناعا كليّا، وبحثت في إجابته عن ثغرة تطيل بها عمر الجدل القائم، لكن صوتا منبعثا من المطبخ كان سبّاقا فأسرعا باتجاهه. كان صوت تسرّب مياه من السقف بشكل عرضي ينزل إلى أسفل الجدار طوليا، قال "عزيز" بعد أن لاحظ ذلك:

- واضح أن مصدر المياه من الطابق الذي فوقنا، سأصعد وأسأل!
- حسنا وأنا سأحضر بعض المناشف لنتحكّم في الوضع مؤقتًا.

في الطابق الثاني طرق "عزيز" باب شقة "مهران" ففتح له "سيف":

- تفضل؟
- أنا جاركم في الطابق الأول... عذرا على الازعاج، ثمة تسرّب مياه في شقتي، قد يكون مصدره شقتكم أو الشقة المجاورة لكم، هلا تأكّدت من ذلك!
- لا أعتقد لكنّا لاحظنا... سألقي نظرة؛ لحظة!

و دخل ليتفقد المطبخ والحمام ثم عاد وصرّح قائلا:

- ليس التسريب من عندنا...

وأشار لباب الشقة المقابل:

- احتمال كبير أن يكون من بيت جارنا "ماجد"، هو غير مقيم فيه حاليا... انتظرني دقيقة سأتصل به، هو في كل الأحوال قد ترك لنا المفتاح إذا حدث أمر طارئ، سأحضره لنرى ان كان بإمكاننا اصلاح العطب ريثما يحضر.
- شكرًا وآسف على الإزعاج.

- لا مشكلة! بعد اذنك.

مشاعر كثيرة يمر بها الانسان ولا يستطيع شرحها، كالجو الغريب الذي قد يشعر به عند دخوله مكانا اعتاد أن يكون مليئا بالبشر؛ أضحى الآن شقة هادئة مهجورة تجوبها أشباح الماضي. لكن ذاك لم يكن شعور "ماجد"! كانت الشقة مظلمة تماما حين فتح بابها بهدوء في تلك الساعة المتأخرة، خطا بضع خطوات للداخل حاملاً حقيبة سفر صغيرة وأشعل الضوء من أقرب مقبس، جال يمنة ويسرة بعينين مبهمتين وملامح جليدية لا مبالية، فالبيت لم يكن يوما مليئا بالبشر ولا بأرواح البشر، لكن ذلك لم يمنع حنينه لبعض الذكريات التي مرّت كطيف بذاكرته حين أشاح بناظريه إلى زواياه، فعلت ثغره بوادر ابتسامة متحسرة ولم تترك له مجالا ليلاحظ الفوضى التي أحدثها صنبور المياه الذي انفجر. كان صمته سيد الموقف ولو أنّ حميميّة المكان زعزعت ركونه الهامد ذاك؛ صحيح أنّ هذا البيت كان بالنسبة إليه محطة لا أكثر، ولو حسب الفترة التي أمضاها فيه لعادلت بالكاد أقصر إقامة له بفندق ما، لكنه موقف متوقع من شخص عاش حياته كسائح افتقر إلى الاستقرار، اللامتوقع هو أنه بالرغم من أن جواز سفره حمل أكثر من ختم إلا أنه لم يشعر بانتمائه إلى مكان ما أو شيء ما مثلما انتمى إلى هنا، وكأن أبا تمام خصّه ببيته الشعري حين قال: كمْ منزل في الأرض يألفُهُ الفَتَى... وحنينُهُ أبدًا لأوَّلِ منزل. كان البيت كمتحف يبعث التجول فيه على الأسى ردّا على الإهمال والتخلي، شعر به "ماجد" يعاتبه فراح يتحسّس بأنامله الأشياء من حوله ليمسح عنها إهمال سنوات مضت؛ مرّر يديه على مفاتيح البيانو التي تلبّست بخيوط العناكب ونفض المقعد الذي تراكم الغبار عليه، هناك كان يجلس يتعلم العزف وتقف والدته على رأسه لتصفّق ما إن ينتهي، أمسك المزهرية التي كان يسقطها في كل مرة يضرب فيها الكرة فتصطدم برجل الطاولة وبسببها منعته والدته من احتراف كرة القدم ولم يصبح "الكابتن ماجد" كما لقبّه طلاب مدرسته، ومع نفس المزهرية تذكّر كيف كانت أمّه تقلّم أزهار الحديقة كل صباح لتضعها فيها وتضع فيها كثيرا من الماء وقليلا من السكر، ثم تثبّتها في

منتصف طاولة الصالون لتفوح أرجاء البيت برائحة الورد؛ التّي لا يزال عطرها عالقا في أنفه.
وبعد ذلك الجو الشّاعري، وقف خلف النافذة بين نصف ظل ونصف إضاءة، فرد ظهره وأرجع كتفيه للوراء، قرّب منه عدسة الهاتف وأعطى نظرة ناعسة أغمض فيها الجزء الأسفل من عينيه، عضّ على أسنانه الخلفية فبرز فكّه حادا، قطّب حاجبيه لتبرز فجوة تجاعيد بينهما ولم يبتسم، عدّل ياقة قميصة فبدا مظهره جادا واثقا والتقط الصورة أخيرا ثم شاركها على حساب "الانستغرام" كما يشارك كل تفاصيل حياته. كانت آخر صورة "سيلفي" له في آخر منطقة حطّ رحاله فيها مع لافتة "رأس الرجاء الصالح"، أقرب نقطة من أقصى القارة الافريقية جنوبا. قام في ستّ سنوات بما يفوق المائة رحلة، زار في فترة وجيزة مجموعة دول لا تستطيع أوراق جواز سفر واحد استيعاب كل تأشيراتها، وتبقّى له ثلث الخريطة ليكمل دورته حول العالم، قضى أسفاره بين تخييم ورحلات وعيش في كرفانات، جرّب كل وسائل النقل بدئا بالجمال والفيلة إلى المنطاد مرورا بالوسائل الاعتيادية.

كان السّفر أولويّته في الحياة، قرأ كتبا وروايات كثيرة عن أدب الرحلات وكبر معها. بعد أن أنهى دراسته الجامعية التي خصّت هندسة الطيران، التحق بشركة طيران وصار في ظرف سنة "الكابتن ماجد"... كان هذا السبيل الوحيد لإقناع "مادلين" بطريقة غير مباشرة بمسألة السفر من بلد الى بلد، وعندما اعتادت والدته على الفكرة تخلّى عن وظيفته ومارس شغفه دون قيود من مؤسسة تابع لها! صار طيّارا لكنه لم ينس شغفه الأول "الساحرة المستديرة"؛ فلا يتواجد فريق في العالم لم يكن يشجّعه، إذ كان يرتب معظم جولاته لتتزامن مع مباريات النوادي ليحضرها على أرض الميدان.
لم يرغب في عيش روتين ملايين الناس والتّأمل في كسره يوما ما، لم يرض أن يكافح في وظيفة على مدار السنة حتى يتكرم عليه مديره ويعطيه نصف شهر اجازة يمضيها كلمح البصر. أراد أن يكون حرا لا حدود لعالمه فجعل من العالم بيتا له؛ اتّخذ أصعب قرار في حياته حين تنازل عن دخول ماراثون الحياة الاجتماعية بمحطاته الاجبارية التسلسلية؛ ايجاد الوظيفة، تأمين الشقة،

اختيار شريكة تقاسمه راتب الأولى وسقف الثانية، اعمار الكوكب بنماذج مصغّرة منهما! وبالأخص فكرة الانضمام لأسرى القفص الذهبي؛ كان على استعداد أن يتراجع ويُقدم على كل تلك الشّكليات التي تخلّى عنها ما عداه! لذلك وضع باستمرار خاتما في يده اليسرى لكي يوحي لمن حوله ارتباطه، وأضاف هذه الصفة على خانة الحالة الاجتماعية في كل حساباته على مواقع التواصل الاجتماعي. لم يعتبر الأمر شخصيا لكنه لم يكن يثق في جنس النساء؛ لا في كلامهن ولا في نواياهن ولا في طريقة تفكيرهن، كان يراهُنّ كائنات مبالغات، متصنّعات، استغلاليّات، في الحقيقة صرن خارج مجال رؤيته بعد أن استبعد من دائرة معارفه كلّ من لاحظ عليها خطئا حسب مفهومه؛ أدنى تصرّف أو سؤال عفويّ، أيّ جملة عبثية في غير محلّها، كلُّ موقف متحيّز أو ردّ فعل غير مدروس... حتى لو كان الخطأ عابرا وحيدا مقترنا بعديد المزايا. كان في شخصيته تشابه مبالغ فيه من الشاب اليوناني الأسطوري "نرسيس" فعُرف بوسامته وجاذبيّته ونرجسيّته مثله. وظلّت والدته المرأة الوحيدة التي سمح لها باختراق حدوده! هو في الأصل لم يسمح، كان وضعا قائما. لكن ذلك لم يمنع تحفّظه واستنكاره لبعض الصفات فيها، كان يراها امرأة تُحكّم عقلها إلى أبعد الحدود ولا تسمح لقلبها بالمشاركة في أي قرار تتخذه، تعيش لإرضاء نفسها اجتماعيا ومهنيا. قاسية مع نفسها ومع الآخرين وحتى مع الأشياء؛ فتمارس الأمومة المفرطة معه لتعوّض ذلك! أمّا "مادلين" فلم تتدخل في قرارات ابنها ولم تلحّ عليه كباقي الأمهات، لعلمها مسبقا أنّها ووالده سبب في هذا التحفظ إلى حد كبير. ذلك لأن سبب عزوف "ماجد" عن مبدأ الزواج لم ينحصر في تحمل شريكة حياة بايجابياتها وسلبياتها مدى العمر، بقدر ما أنهكه التّردد فيما إذا كان مؤهلا ليضيف للعالم من هم أفضل منه، أم أنّ مهمته ستقتصر على إنتاج مزيد من المرضى النفسيّين مجتمعيّا.

في داخل كل إنسان تركيبة من الطّفل والمراهق والرّاشد، كل موقف يستحضر شخصية معينة. عند "ماجد"، كان الطفل حاضرا دوما، واضحا جدا!فألحّ عليه هذه المرة بالبقاء حين تعلّقت يداه بياقة الذكريات، ولم ترغب في إفلاتها قبل أن يتلاعب بهذه الذكريات أو تتلاعب هي به. أثناء محاولته إرجاع ملامح المكان لما كانت عليه في السابق وتجرّعه مشاهد الماضي بجُرع مكثفة، أفلت من يده المزهرية ذاتها المليئة بالندوب فأخرجه وقع شروخها الجديدة من شروده، عمد إلى لملمة أشلائها بعناية أملا أن يسمح عمرها الافتراضي بأن تلصق مجددا! لم يكن قد حسم قراره في البقاء أو المغادرة، لكنه أحس أنه سيهزم أمام رغبته في المكوث قليلا وحنينه إلى البيت الذي لم يستطع احتماله ولم يفهم منشأه. أحسّ فقط أن البيت ناداه بحركة تسرّب المياه تلك وقرّر الاستجابة لذاك النداء مؤقتا.
يتبع...

١ نيسان

...

اليوم الذي خصّصه البشر للكذب على بعضهم بصدق!

أليست فكرة غريبة؟! ليس لأن الكذب عادة سيئة لا يجوز تذكير أنفسنا بها، ولا لأننا نكذب بدون مناسبة عموما حين نقول؛ أنا بخير... أنا أيضا... نعم... لا... لا أعرف... لم أفعل... لم ألاحظ... لا يهم... سأرى...

كل ما في الأمر أن الأولوية في تخصيص يوم معين لتذكر شيء والقيام به يُفترض أن تكون من حقّ الأشياء التي يصعب الالتزام بممارستها طوال العام، وهل هذا شرط ينطبق على الكذب؟!

هو سهل لا يحتاج منا بذل أدنى مجهود، متاح كل يوم، في تعاملاتنا السطحية مع بعضنا البعض... لن تستطيع التحديد ماهيته؛ أ هو موروث بشري بحت؟ أم طبع؟ أم داء؟ أم اضطرار؟
لكنه ليس صفة قبيحة فالإنسان يمارسها مع نفسه أيضا ولا أظنه بالسوء ليضرّ نفسه!

لمَ لمْ يبادر صاحب الفكرة بتخصيص يوم للصدق؟ لقول الحقيقة دون تحفُّظ، ولا شيء غير الحقيقة؛ حقيقة أقوالنا وأفعالنا ونوايانا... هل هو أمر صعب وأقرب للمستحيل لهذه الدرجة؟ ربما لعلمه المسبق أن وُجود يوم كان ليلزم الناس بالصمت على

مدار الأربع والعشرين ساعة، ومهما بلغ بالبشر الطموح، سيتحول إلى يوم استراحة من الكذب لا أكثر!

هل كان سيثبت على الفاتح من أبريل أيضا؟
بعضهم رشح "١" ماي و آخرون "٣٠" أبريل كيوم للصدق العالمي؛ سيكون من الواقعيّ لو جعلناه يوم الثلاثين من فبراير؛ اليوم الذي لا وجود له في التقويمات المستعملة حاليا!

... الرسالة (١١)...

في صباح ذلك اليوم كان "فيصل" على غير العادة يستلم الجرائد اليومية من صندوق الطرد القريب من البوابة، بعد أن اقتناها "جلال" واستودعها هناك لتكون في متناول سكان العمارة-كل حسب اهتمامته الاعلامية- كانت تلك احدى خدماته فضلا عن اقتناء بعض متطلبات السوق للسيدات، لكنه تخلى عن هذه المسؤولية مؤخرا لبطئ حركته، وصار يُمضي ساعات يومه نائما على الكرسي المجاور لبسطة كتبه، يأخذ جسده نصيبه من القيلولة عدة مرات في النهار، خاصة وأنه بات من النادر أن يشتري منه أحدهم كتابا.
لمح "فيصل" في صندوق الطرد علبة فأخذها وتأمّلها. لم تكن تحمل اسما بصاحبها، كانت مجسما سداسيا صغيرا أخذ شكل علبة الكبريت، بخامة من الكرتون الرفيع الملون مطبوع عليه "العائلات السبعة". قلّبها بين يديه وقال باستهزاء بصوت مسموع:

- هل ما يزال هناك من يلعب هذه اللعبة في هذا العصر؟

رأى "كرم" نازلا من السّلالم بنيّة الخروج، ولأنه كان أصغر فرد في العمارة، رجّح أن العلبة له وناداه:

- تخصّك على ما أظن.

وقذفها صوبه فأمسكها "كرم" بكلتا يديه، رجّها فسمع صوت بطاقات ورقية ثم نظر إليه باستغراب:

- ما هذه؟ ليست لي!
- لا مشكلة، اسأل من صاحبها وسلّمها اياه!

وانصرف عائدا لبيته بلا مبالاة بينما وقف الثاني متأفّفا وهمس متذمرا:

- هذا ما كان ينقصني... أن يعطيني هذا المجهول الأوامر ويعتبرني طفلا.

في تلك الأثناء اقتحمت عينا "حياة" الحدث بنظرات فضولية، كانت في شرفة شقّتها المستقبلية تتفّق هي و"عزيز" مع الدّهان حتى شدّ انتباهها مشهد

الشّابين عند البوابة، فراحت تتابعه من بدايته محاولة تضييق عينيها اليقظتين لتفهم ماذا دار بينهما.

وعاد "كرم" أدراجه مُرغما قبل أن يحضر أصدقاؤه الدّين تواعد معهم –هناك أمام بوابة العمارة- ويرونه حاملا ذاك الشيء السخيف بالنسبة لأقرانه.

طرق بابًا بابًا وسأل شقةً شقة عمّن تخصّه العلبة أو اللعبة، فلم يأخذه أحد على محمل الجد ظنّا منهم أنه مقلب منه في الفاتح من أبريل، كما سبق وفعل معهم في السنة الماضية والتي قبلها، فأبقاها معه.

عند عودته الى منزله، كان "حافظ" لا يزال يرتشف قهوته الصباحيّة ويطالع معها أحد الكتب السياسيّة، سأل "كرم" والده من باب الفضول عن تلك اللعبة دون أن يريه إياها، فوضع كتابه جانبا تاركا إشارة مرجعيّة في الصفحة التي توقف عندها، وأخبره عن أصلها بشكل وجيز بعد أن استغرب طبيعة سؤاله:

- تمّ نشر اللعبة الأولى للعائلات السبع بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين وكانت الفكرة لرسّام كاريكاتيري، جعل سبع عائلات ولكل عائلة ست بطاقات، بعد عدة تغييرات تم الاستقرار على الأب والأم والابن والبنت والجد والجدة وكانت تُعرف قبل ذلك بالعائلات السعيدة. تم من خلالها تصوير الحياة اليومية والألقاب والمهن بأنواعها، واختلفت المصادر في عدد البطاقات ومحتوياتها بمرور الأزمنة ومع ذلك احتفظت لعبة العائلات السبعة برسوم كارتونية ومفاهيم عائلية كلاسيكية حين أظهرت أنواع الأُسر من جميع أنحاء الأرض في أنشطتهم اليومية.
استهدفت اللعبة الأطفال لا البالغين، وكان مبدؤها قائما على تبادل البطاقات واخفاء الأوراق واعادة تجميع العائلات، والفائز هو من ينجح في تجميع أكبر عدد من العائلات مكتملة الأفراد.

على غير المُتوقّع، أصغى الفتى باهتمام وتركيز لكلام الأستاذ "حافظ" الذي واصل بصوت رزين:
- من أكثر الألعاب التي ساهمت في خلق وقت مميز من الاثارة والمرح مع العائلة، لا تتطلب سوى الانتباه وقوة الذاكرة وبعض الحظ... لكن اللعبة فقدت جاذبيتها شيئا فشيئا، صحيح أنها أبقت على المبدأ لكن العائلات عُوّضت بالحيوانات والرسوم المتحركة الشهيرة وتغيّرت قوانين اللعبة وتمّ اضافة بطاقات وتعليمات جديدة.
عندما كنت مدرسّا، استخدمت مبدأ هذه البطاقات ورشّحت لتلاميذي صنع بطاقات مشابهة، لتسهيل استيعاب الشخصيات التاريخية وتواريخ الأحداث.

قرّر "كرم" بعدها الاحتفاظ بها ريثما يظهر صاحبها، لكنه لاحظ أنّ خفّة العلبة وحركة البطاقات داخلها لا توحي أن فيها كمَّ البطاقات الاثنين والأربعين التي حدّثه عنها والده ففتحها وأخرج محتواها.

وتفاجأ!...

MARIN
زكية
وداد
أسعد
سليف

احتوت العلبة خمس عشرة بطاقة فقط، بعدد سكان العمارة!
حملت كل بطاقة اسم فرد مقيم بالبناية، وميّز لونٌ موحد الأفراد من نفس العائلة، فكان اللون القمحيّ من نصيبه هو و"حافظ" و"زكية" و"هبة". طُبعت البطاقات بطريقة احترافية، حملت وجوهها صورهم الكاريكاتيرية بهيئات وملامح أقرب إلى الحقيقة، وفي الوجه الآخر برز اسم كل منهم.

استغرب "كرم" بينه وبين نفسه؛ من متفرغ لهذا الحد؟ من جادّ في مزحته الى هذه الدرجة؟ من نافسه هذه المرة في صبيانيّته؟ من المؤكد أنه من ساكني البناية فهذا يعرف الجميع!

كان قد أدرك مسبقا أنه لو مرّ مجددا على الشّقق، وأخبرهم بما توصّل اليه لن يصدّقه أحد بل سينسبون هذه الحركة إليه في النهاية، لذلك تراجع. كان متأكدا أنه ليس إلا مقلبا من أحدهم وانتهى به التفكير الى إخفاء الأمر، ففي كل الأحوال لن يبالي أحد بهذه السخافة.

يتبع...

١٨ أيار

يوم زيارة الأقارب العالمي

...

إذا عُمّمت أكذوبة التواصل الاجتماعي، سيأتي علينا يوم تقتصر فيه زياراتنا العائلية على حضور عزاء بعضنا، وربما سنستغني عن فكرة تشييع الجنائز للأقرباء ونكتفي بقبول التعازي بالرسائل على حساب المرحوم أو بالإشارة إلى اسمه في منشور ووسم جميع أفراد العائلة، دون نسيان ذكر الحالة "حزين جدّا"! أمرٌ لا غرابة فيه ما دمنا نرتمي إلى أحضان جداريّات عالم افتراضي يستبيح خصوصيتنا، وننسج عبارات مؤثرة تحصد تفاعلا لا معنى له، سامحين لفجوة المحيطين بنا أن تزداد اتساعا.

لا أحد مدرك إلى أي درجة يتهاوى العالم من حولنا، عالمٌ مصطنع لا يكفّ عن الاستغناء عن بساطة الأشياء وقيمها المعنوية، زمنٌ يتغير بشكل عنيف تاركا أهم المناسبات في خانة الأيام العادية الباهتة أو يكتفي بعرضها بخاصية التسريع، لنعيش حياة هامشية نحن في الأصل ندّعي عيشها، نظن بأننا نفعل ما نريد، ونعتقد أننا نشعر بما نشعر!

تدهورَت النّوعية البشرية بجُملتها؛ بشريةٌ غير ناضجة انسانيّا، فقدت تنوعها وأصبحت نسخة واحدة مكررة تنصبّ في نفس القالب لكائن سطحيّ، حيّ نسبيّا، يحمل في جوهره الخير والحب والأمل، تسكنه الشرور والأكدار والعلل، تعترضه من فترة لأخرى نوبات

لامبالاة ونفور من البشر أمثاله فيكتفي بالتعاملات الضرورية معهم وإذا اضطرته رغباته العقيمة، ينافقهم بتبجّح. لكنه المحتاج دائما إلى ما يأخذ بيده نحو انسانيته التي رمى بها في أقرب حاوية للمبادئ دون سبب وجيه.

شئنا أم أبينا سيبقى الزمن الماضي، الجميل في بساطته؛ عزاءنا الوحيد أمام عبث حاضر نحن فيه مُغيّبون!

... الرسالة (١٢)...

استيقظت "زكية" متأخرة على غير العادة فهرعت إلى مطبخها تعدّ القهوة قبل أن يستيقظ الجميع. استغرق الماء وقتا أكثر ليغلي كأنه يتعمّد! بعد أن أخذت دواءها على الرّيق، راحت تفتح نوافذ ابنيها لكسب بعض الوقت بإيقاظهما، وأنهت بغرفة "حافظ" ثم عادت الى المطبخ.

في غضون عشر دقائق كانت مائدة الافطار الصباحي مجهزة، توسّطتها سلة الخبز المحمص والكعك المنزلي، على جانبيهما جرة المربى الخزفية وصفيحة قطع الزبدة، وأحاط بها كوبي الحليب وفنجاني القهوة مع ابريقها.
ذهبت لتحضر السكرية وعند عودتها كان الأخوان "هبة" و"كرم" قد التحقا بالطاولة وكان كرسي "حافظ" لا يزال خاليا فقامت لاستعجاله.
بعدها بدقائق عادت واستعجلت أبناءها:

- اسرعوا يا أطفال... "هبة" ستتأخرين على جامعتك، "كرم" أظنهم سيغلقون بوابة الثانوية في ظرف دقائق.

رافقتهم الى الباب وودّعتهم وعادت لغرفة زوجها وقد كان على الوضع الذي تركته عليه منذ قليل، انتبهت إلى أنه من النّادر أن ينام في مثل هذا الوقت، ظلّت تترقّب تردُّد نفَسه لكنها لم تلحظ أي حركة، ثم قامت بهزّه على أمل أن يستيقظ أو يغيّر وضعية نومه.
تقاذفت أنفاسها في سباق هستيري وتمزّقت أسارير وجهها في اللحظة التي أدركت فيها مرارة الحقيقة... جثت على ركبتيها بجانبه وأمسكت يديه الباردتين؛ ارتجفت أوصالها واحتضرت حشرجات صوتها في محاولة يائسة لمناداته:

- حا... حافظ... حافظ؟...

كانت روحه قد رفرفت بعيدا عن جسده منذ مدّة؛ رحل دون معاناة... دون أن يترك مساحة للوداع.

كبرت "زكية" في لحظة بعدد سنين عمرها كلّها ثم توقف الزّمن بها في لحظة، لم تبك حينها ولم تصرخ! كانت تخرج أنفاسها بصعوبة ثم تخاطبه مجددا:

- أيعقل أن تذهب دون أن تودّعني... أو توصيني كيف أتصرف عند غيابك، هذه ليست عادتك! ماذا أفعل الآن يا "حافظ"؟ بمن سأتصل؟ وكيف سأخبر أولادك؟ لم تتركني في موقف صعب كهذا في حياتك.

نظرت إلى متعلّقاته بحسرة، نظاراته في مكانها المعتاد، لا يزال مصحفه مفتوحا في صفحة لم يُتممها، كان منظما ليس من عادته ترك الأمور في منتصفها!
ثم ارتمت إلى الخلف وبدأت تبكي في شهقات متقطّعة، انتظرت أن يصحو في أية لحظة؛ فـ"حافظ" لا يذهب إلى مكان دون أن يعلمها قبلها! لم تتقبّل رحيله فلم يكن مريضا، كان في كامل صحته على العكس هي من كانت مريضة وهو من كان يخشى فقدها.

احتارت فيما ستفعل، هل تهرع إلى سلالم البناية وتنادي على الجيران، أم تستلقي إلى جانبه لعله يستيقظ أو تلحقه هي. ثم قامت فأخرجت ماكينة الخياطة من مكانها وأزاحت الغطاء عنها، أقفلت دولابها حيث ملابسها وملابس حافظ واستعانت بكرسي لتحضر من فوقه كيسا احتوى قماشان أبيضان وقماشا أسود، تركت فيه قماشا أبيض وأخذت البقية، وضعت الأبيض بجانب الرّاحل والأسود تحت ابر الماكينة لتخيط ملابس الحداد الأبدية.
ما هي إلا سويعات معدودة حتى احتشد سكان البناية في الطابق الأرضي؛ يحملون الكراسي والصينيات المثقلة بأكواب الشاي والقهوة، لمساندة الجارة في نكبتها، وأفواج أخرى ملأت غرفتي المعيشة والاستقبال.
ظلت "زكية" تُمنّي نفسها بنهاية هذا الكابوس حتى قدم الناس للتعزية والمواساة وأدركت أن عليها التقبل، فالحياة تستمر بشكل بشع لا يقف احتراما للحزن أو الفقد. خرجت لتأخذ العزاء في نفسها قبل زوجها وهي تشعر بالذنب

لأنها وأخيرا سلّمت بحقيقة موته، احتاجت له دون غيره في تلك اللحظة ليخفف عنها ألم رحيله!
لم تكن ترى أو تسمع أحدا وسط ذلك الزّحام الدّامع؛ جيرانها في العمارة وأقاربها وأقارب زوجها كلهم حضروا تشييع الجنازة وظلّت لا تصدق حتى بدأت مراسم الدفن وسمعت أصوات التّكبير لحمل فقيدها الى مثواه الأخير.
انتهى العزاء سريعا ككفنه الذي وارى في عجلة جثمانه، وانصرف الحضور ليواصلوا سيرهم في متاهة الحياة بعد الانذار الذي أعطته لكل فرد منهم اليوم.
توفي "حافظ" وكعادة المحافظين أمثاله لم يترك لأهله مالا، لقد استودعهم موسوعة كتب تاريخية نادرة وأغراضا معنوية القيمة؛ أقفل عليها في درجه باستمرار. وترك لهم ثروة من الذّكريات؛ ماض فيه من اللحظات والمواقف ما يكفي ليبقى حيّا بينهم دائما، ومستقبل سيكون فيه حاضرا بتعاليمه ومبادئه التي غرسها فيهم.

في نهاية ذلك اليوم وفي طابق أعلى... دلف "أسعد" إلى غرفته حيث لا مكان سوى لقدميه، كانت غارقة في الظّلام إلا من بصيص نور القمر الخافت المتسلل عبر النافذة، ألقى بجسده المنهك على سريره وراح يستحضر ذكراه المريرة متهامسا بينه وبين نفسه:

- لمَ لا نعي بأننا نحب من نحبّهم إلا على عتبات النهاية؟ هناك فقط تولد وتموت أبلغ نظرات الود والشجن ليتبعها ألم فقد أبدي لا مسكنات له.
يا ليتني مثلك يا "كرم". ليت الفقد جاءني على دفعات!

كان يرى في عائلة "حافظ" الصورة الأقرب لعائلته من بين كل عائلات العمارة، تذكّر كيف كانت حياته هادئة تمرّ فيها الأيام بشكل تسلسليّ بهيج، لا شيء يعكر صفوها... أب يعول الأسرة قدر المستطاع وأم تسد ثغرات مسؤولياته بعطفها وحنانها وطفل يساعد في بعض المهام، حتّى اعتاد على ذلك الانسياب ووثق بالأيام أنها كفيلة بتغيير الظروف وتقديم الأفراح وتحقيق الأماني، وتمرير الأحزان إذا تطلّب الأمر، فتقبّل كلّ ما حملته له الأيّام بطيب

خاطر إلى أن باغتته بيوم منها قلب كيانه، حادث سير مرّوع انتقى والداه كضحايا.
توقف الفيلم الكلاسيكي عند ذلك المشهد وأُتبع بشاشة عرض سوداء تنازل "أسعد" عن اتمام باقي مشاهدها بمفرده، غيّر رأيه في باقي أيام حياته وفقد ثقته بكلّها... كما يحدث مع الأشخاص عادة، انسان واحد كفيل بتغيير رأيك في باقي الناس، فتأبى التّخلص من الاحساس المرير بالوحدة فضلا عن خيبات أخرى.

مات والدا "أسعد" عندما كان طالبا، لم يعترض على المشيئة وبحث عن الحكمة من وراء ما حدث، فلم يكن يضع في حسبانه أن يُعمّر والداه مدى الحياة، كل ما في الأمر أنه تخيّل أن يكبرا ويتذمّرا كما يفعل العجائز، تمنّى أن يُتعباه... بهذا كان سيُمهّد لنفسه غيابهما وألمه كان ليكون أخفّ. ربما لهذه الأسباب جعل عيادته في نفس البيت أين عاشا معه وربّياه فيه، واختار تخصصا يجعله أكثر احتكاكا بكبار السن في نظره، رغم أن مرضاه لم يقتصروا على تلك الفئة العمرية، لكنه كان يرى والديه في أي مسن أو مسنة يقصد مكتبه، أو يريد أن يرى ذلك!
هناك من يجسد الحياة في الأشخاص وهناك من يجسدها في الأشياء... كل يبحث لنفسه عن حجة ليتمسك بالحياة ويتحمل سوء طباعها، أمّا "أسعد" فبعد أن أدرك ممّا عايشه كيف على الطبيب أن يكون على علم بأن الحياة لا تقاس بمؤشرات حيوية فقط؛ قطع على نفسه العهد أن لا يتعلق بشخص أو شيء؛ مادام الأشخاص ذاهبون والأشياء زائفة، ولم يكن لا هو ولا حتّى مهنته استثناءً.

يبدو أن رحيل الأستاذ المبجّل قد أثار قريحة الكثيرين، ففي الشّقة التي تعلو عيادة "أسعد"؛ كانت "وداد" تقيم الحداد بين جدرانها في صمت؛ بعد أن فقدت آخر شخص تبقّى من عائلتها الأم، وفي ذات الأثناء كانت "نجمة" جالسة في حجرتها تعبث أناملها بصورة قديمة جمعت أفراد العائلتين، كان شباب اليوم فيها أطفالا. نظرت إليها مطولا حتى غرقت في الذكريات، استغربت كيف

بدت وجوههم مشرقة ومطمئنة، كيف كانت الصورة تنطق بالحياة دون أن تلمّح ولو بإشارة عابرة إلى ما يخبئه الغيب لكل واحد في الصورة، سمحت لنفسها بالتفكير برهة... من التّالي؟ بمن ستُمتحن أيضا؟ ومتى سيحين دورها؟ كلّها أسئلة جالت في عقلها دون أن تجد لها إجابات مقنعة حتى بدأت شمس اليوم الجديد تسدل أشعتها على ستار غرفتها الأرجواني، فتهرّبت من الإجابة وحوّلت تفكيرها إلى الموضوع الذي ستناقشه مع متابعيها اليوم، لكن دائرة احتمالاتها انحصرت في الشيء ذاته لا غير؛ استسلمت لرغبتها واستغلت حالتها النفسيّة لتكتب استهلالا للموضوع:

" يباغت الموت الفاقدين لدرجة لا يترك فيها متسعا لاستيعاب ما حدث، بعد أن يكون قد منع الحياة من أي محاولة تلميح أو إنذار حتى يحافظ على اعتباره كل مرة. الموت آخر تجربة لنا... شيء لا بدّ أن تُعايشه كي تُحتسب لك السنين التي عشتها من قبل، وعلى عكس تجارب الدنيا أجمع التي يمكنك أن تتخطّاها عجزا أو رهبة أو تحذلقا... لا إعفاء من الموت! أصعب ما في الأمر أنه برغم ذوي الخبرة في هذه التجربة بالذّات، منذ هابيل، لا يمكنك أن تسأل أحدا منهم "كيف كانت؟"، أن تستشيره كي تستعدّ لمواجهة الحدث، لا أحد يمنحك من خبرته أو يغشّشك في هذا الموضوع... ليست بالتجربة المسليّة رغم أن لا مكان فيها للتكرار؛ كشيء لأول وآخر مرة... ومهما كنت تقيّا لا يمكن أن تقف أمامه، مهما قاومت أو عاندت وحتى لو استنجدت بالحياة شخصيا! "
"بولاريس"

يتبع...

١٥ حزيران

...

اليوم العالمي لمكافحة اساءة معاملة المسنين

في هذا اليوم يحتفل العالم بيوم المسن العالمي.
اختير للتّذكير بواجب الصغار تجاه الكبار... لنسأل نفسنا ؛كيف نرعى هذه الفئة؟ كيف نعوّضهم؟ كيف يجب أن تكون مكافئة نهاية الخدمة؟
كبار السن الذين طال بهم العمر ودبّ فيهم العجز؛
من ضعف نظرهم وسمعهم فصاروا بحاجة لمن يقرأ لهم اسم دواء أو فاتورة، ولمن يعيد عليهم بصوت عال ما قاله مُخاطبهم، من ثقلت خطواتهم فأصبحوا بحاجة لمن يأخذ بيدهم ويرشدهم الطّريق مثلما أخذوا بيدنا ونحن نتعلم المشي وساروا بنا في النزهات والملاهي، من ضعفت ذاكرتهم وصاروا بحاجة لمن يذكّرهم بأحداث مضت مثلما سردوا لنا قصصا وعبرا، من ضعفت أبدانهم فاحتاجوا من يعطيهم كأس ماء أو يناولهم ملعقة مثلما أكلنا بين ركبتيهم يوما وتعلّمنا نطق كلمة جديدة في نهاية ذلك اليوم.

هو فقط عرفان بالجميل... عطاء ووفاء لمن ضحّوا بعمرهم في سبيل أبناءهم، لمن عمّروا وأمضوا حياتهم من أجلنا أو لأجل آباءنا؛ بعد أن كانوا سببا في قدومنا بعد قدوم آباءنا، لمن لا يريدون منا سوى الاحترام والتقدير وأن نكون بخير!

... الرسالة (١٣)...

في ذلك الوقت الباكر جدا من ذاك الصّباح والشوارع خاليّة تماما من المارة، وقفت سيارة وحيدة من طراز "مرسيدس" بركن جانبيّ من الشارع، كشفت نافذتها الأمامية شبه المغلقة عن نصف وجه أهمّ ما يميّزه نظرات حادة ثاقبة تتخفّى خلف نظّارة سوداء لا تحيد زاويتها عن البناية، بعد دقائق ترّجل منها صاحبها. منذ مدّة وهو يتعمّد المرور أمام مدخل البناية مع أنها ليست في طريقه... تتسلق عيناه البناية ثم يلقي نظرة مُطوّلة وكأنّه يودّع المكان للمرة الأخيرة، لكن قدماه تأتيان به عنوة مجددا، يقف يتحسّر كيف أنّ أناسا غيره يسكنون بيته السابق، يرمق تلك التي كانت شرفته بطرف نظره فيتأسف على لون الستار، لو كان هناك ما كان ليسمح بلون قاتم كهذا، ينوي في كل مرة الدخول لكنه يتراجع قبل أن تُقدم قدماه على ذلك. شعور غريب أن تُحسّ أنّ بيتك لم يعد لك... إذا كانت بضعة أمتار مربعة تفعل بالإنسان هكذا؛ ترى ما حال من سُلبت منهم أوطانهم؟ إلى أين يذهب من لا يصبح البيت والشارع والهواء ملكه؟

لِمَ جعل من المشهد دراميّا لهذه الدرجة؟ مهما كان شعوره حقيقيّا لن يخلو من بعض الزّيف. لو لم يُمض فترة لا بأس بها في هذا المكان لكنت صدّقته، فمن معايشة أي انسان له يمكنه الجزم أنه ليس سوى انسانا ماديا استغلاليا جشعا يحبّ التملك!

اسمحلي أن أعرّفك برجل الأعمال "جمال حمدان" -منذ أقل من عشر سنوات كان "رجل" فقط- ولك أن تتخيّل أن الشخص الواقف أمام بوابة العمارة الآن مهيب الطّلة، ببدلته الأصليّة وحذائه الملمّع و كل ما يكمّل أناقة هندامه من ربطة عنق بمثبت فضي، منديل جيبي مطوي مكشوف، ساعة رولكس ونظارة سوداء... كان مهترئ الثياب، أغبر الشّعر، مصفر الوجه وخالي الجيوب، حاملا على ظهره أغراضه في أول مرة دخل المكان بعد أن توسّط له البواب السّابق للعمارة "جلال" عند السيدة "صفية" ليقيم في حجرته المقفلة

آنذاك؛ بحجة أن لا مأوى له -حيث يقيم "فيصل" حاليا- ودام ذلك بضعة شهور لا أكثر!

بعد أن افتتحت أمام "جمال" الأبواب وعرفت "الأعمال" طريقها إليه، المشروعة منها وغير المشروعة، بات يحلم في السّنتين الأخيرتين بامتلاك العمارة بأكملها، لم تُفهم أسبابه الحقيقية بعد... هل لأنه يعتبر البناية فاتحة الخير عليه وجالبة الحظ كما يدّعي؟ أم أنها عقدة المكان الذي دخله حين لم يكن يملك شيئا وأراد إثبات عكس ذلك لنفسه وللآخرين؟ أم فقط لأنّه دخل مؤخرا صفقة مشروع استثماري لهيئة غير محلية ورشّح لشركائه البناية؟!

منذ فترة وهو يحوم حول البيت، أرسل عدة وسطاء من العاملين معه ليتفاوضوا مع أهل العمارة لشرائها؛ بدأ بصفيّة لأنها قانونيا حسب العقود مالكة البناية؛ لكنها رفضت، كان المشروع على المدى الطويل، فلم يستعجل ولم يمانع انتظار مماتها خاصة وأنه لم يكن لها ورثة، وأنّ باستطاعته تسوية الوضع مع باقي العائلات بمبلغ محترم لأنهم ليسوا ملاكا شرعيّين، فـ "صفية" حين عرضت الشّقق للبيع منذ سنين كان بتوكيل من ملاكهم السّابقين -الذين تنازلوا لها لاحقا- لذلك قام السكان الجدد بدفع بدل الاخلاء فقط أو شراء المفتاح كما يُسمّى في سوق العقارات، واستمر تناقل ملكية سكنات المفتاح بين العائلات بهذه الطريقة. لكنها قامت مؤخرا –بطلب من بعضهم- بتسوية عقود من الباطن تضمن ملكيّتهم لو حدث ووافتها المنية.

وعلِم "جمال" بذلك، فقد كان على تواصل دائم مع "مهران" بحكم تبادل مصالح مشتركة بينهم في الماضي، لقد ارتقى بفضله السلالم الأولى وأرشده للطريق المختصر للثراء السهل السريع، بدأ مشواره كشاهد اثبات أو نفي زور، مهنة بسيطة احترفها درّت عليه أرباحا خيالية مقابل تبرئة أشخاص وإدانة آخرين، ثم تحوّل الى واجهة باسم "مهران" لأن منصب ذاك في السلطة لم يكن يسمح له ببعض التعاملات، وعندما أحيل الجنرال على التّقاعد؛ انشق عنه وقرّر العمل لصالح نفسه، وصار في نظر الجميع صاحب شركة مقاولات.

ولأن انتظار "جمال" طال قرر الدخول هذه المرة ومقابلة السيدة "صفية" بنفسه، فاستقبلته هي بطريقتها.
وجدها في وضعيتها المعتادة حين دخل، تقدّم نحوها، قبّل يدها وظلّ واقفا:

- كيف حال "الحاجة صفية"؟ أخشى أن تكوني قد نسيتني!

ألقت "صفية" كلماتها جزافا غير مكترثة بوقعها:

- صحيحٌ أن نفحة العرق والنتانة التي انبعثت منك أول مرة عكس رائحة عطرك المركّز الفواح الآن! وللأسف خانتني عيناي فلن أستطيع مطابقة مظهرك بيوم رأيتك أول مرة، كلها أمور كانت ستجعلني أخطئ فيك، لكن كلامك المنمق المعسول بسم الأفاعي وحركاتك المصطنعة جعلتني أتعرّف عليك بسهولة!

كانت "صفية" قد خمنت لوهلة سبب تلك الزيارة، وبدأت تفكر في صيغة رفض مهينة لضيفها الذي اغتاظ، لكنه تحمّل طول لسانها وكلماتها الملغّمة وقال بمزاح مصطنع:

- لا زلتِ كما تركتك لم تتغيّري.
- ماذا تريد يا جمال؟ قل ما تريده مباشرة!
- لا زلت أصون معروفك معي منذ سنين وجئت طمعا بأن تُحمّليني جميلا آخر أذكره لك ما حييت.
- للأسف... لا أملك شقة شاغرة حاليا، شقتك السابقة يقيم فيها شاب آخر.

ردّ بخيبة أمل:

- لم أقصد ذلك!

ضحكت حتى كُشف طقم أسنانها بالكامل:

- أعلم! ما دمت اخترت المراوغة في الكلام ولا تملك الشجاعة لتقول؛ سأنوب عنك. لدي فكرة عن سبب قدومك منذ تعرُّفي عليك قبل لحظات. تريد العمارة؟

أليس كذلك؟ أ ليس عيبا أن أسمع نواياك من الآخرين؟! أم أنّك تركت دوري للآخر؟

بنظرة متشككة وابتسامة زائفة قال بحماس يشوبه بعض الاستفزاز:

- ما دمت تعرفين فلتريحيني اذن!
- أُفضّل أن أسمع عرضك لي أولا... وصلني أنك عرضت المال على البقية.

أتعبه الوقوف فاختار كرسيّا مجاورا لها للجلوس، فكّ زر سترة بدلته ليجلس بأريحية أكثر ووضع رجلا فوق رجل وأجاب:

- أقدّر وضعك، مسألة الانتقال إلى بيت آخر في وقت تحتاجين فيه لرعاية خاصة أمر صعب بالنسبة لك! لكن لا تقلقي حيال ذلك، أنهيت للتو مشروع سكنات خاصة، مهيئة بالكامل للأشخاص الذين يعيشون بمفردهم، ومزودة بطاقم من العاملين مهمتهم تلبية احتياجات المقيمين، يمكن أن أضمن لك مكانا هناك مقابل شقتك، ودون احتساب الفرق!

لم تبدِ تفاعلا مع ما قاله فواصل:

- لن يفرق وجودك هنا في هذا البيت عن أي بيت آخر، بالعكس... في ذلك المسكن الخاص للرعاية الدائمة ستجدين من يهتم بك ويلبّي كل احتياجاتك. لا تسيئي فهمك لكنك لا ترين بيتكِ حتى! بقاؤك هنا لا يفيدك ولا يفيد أحدا؛ لكنه يقف عقبة أمام مصلحتي ومصلحة من يودّون مغادرة العمارة.

ردّت بنبرة صارمة وقد بدا الامتعاض جليا على قسمات وجهها:

- لم أر في حياتي وقاحة كوقاحتك! من أنت وبأيّ حق تُريدني هجر بيتي لتحقّق مصلحتك! ثم ما المغري في هذه البناية القديمة لهذه الدرجة؟!

نظر جمال إليها بنفاذ صبر فأردفت هي بنبرة مغايرة:

- اسمع يا بني! الدُّور كثيرة والمحتاجون للمال أكثر... حقّق غايتك في مكان آخر.

حكاية هذه البناية معقدّة، صحيح هي ملكي لكن على الورق فقط... وهل كلُّ من كُتب اسمه على ورقة صار صاحب ملك؟! سرّ ملكية البناية وقبل حتى أن تُبنى غير مقيّد في الوثائق.

أربكه عمق نبرتها فقال منتظرا التوضيح:

- لم أفهم!

راحت تداعب فرو قطتها وتسرد بوتيرة بطيئة مستفزة:

- يُحكى أنه في زمن غابر من الأزمان المتوالية، كان هناك أخوان "عبد الحق" و"عبد المالك"، حصلا على فرصة لامتلاك قطعة أرض فنشب خلاف شديد بينهما؛ طرف رافض في أخذ ما ليس حقه وطرف راغب في الامتلاك.
فلجآ الى المباهلة –الملاعنة- وقد كان معروفا في وقتهما اذا اختلف قوم في شيء يجتمعون فيقولون "لعنة الله على الظّالم منا". هناك آية في القرآن - سورة آل عمران الآية ٦١- تتحدث عن المبدأ الذي قصصته للتّو، وبالفعل دعى الأخوان بنزول اللّعنة على الكاذب منهما، وكان شائعا أن الطّرف الكاذب في المباهلة لا يعيش أكثر من سنة!
وحدث أن مات الأخوان في ذات السنة، مات "عبد الحق" فأقام أخوه حُجّة بذلك أمام الملأ وأخذ الأرض، لكنه مات في نفس السنة. اختلف حكم الناس في ذلك من كان الصّادق ومن كان الكاذب، لكن الحكاية نُسيت وورث الأرض أبناء"عبد المالك" وساد الخلاف بينهم أيضا ثمّ تنازلوا عنها إكراها، لكن الأرض عادت إليهم مجدّدا بعد أن بُنيت، لم يُفهم السّر وراء ذلك؟ هل لأحقيّتهم فيها أم أنّ لعنتها لا تريد التّخلي عن مطاردتهم؛ المهم أنّه بعد مُضيّ أقل من سنة على استقرارهم في العمارة ماتوا حرقا!

قام جمال من مكانه وصفّق مستهزئا:

- أصابوا حين قالوا... "يموت الزّمار وأصابعه تلعب"! اتركي الخرافات جانبا، لم أصدّقك سابقا فهل سأصدّق العرّافة الكفيفة الآن؟!

لقد سبق وأخبرني "العم جلال" عن شائعة الحادثة غير المبررة التي راح ضحيتها أفراد العائلات الأولى التي سكنت العمارة.
فشل في ترويض غضبه فاخشوشنت نبراته مضيفا:

- مجرد هراء صرف لم أجد فيه ما يثير الغرابة... لذلك لا تجهدي نفسك بسرد أساطير لتخويف من يودون شراء البناية! سأفترض معك أنها ملعونة؛ لا تقلقي حيال ذلك ستُهدم وسيُبنى غيرها أساسا.

ردت بثقة متجاهلة كل ما سبق وقاله:

- ما من خير يمكن أن يجنيه أولئك الذين يحاولون العبث بالبناية، اللعنة تلازم الأرض منذ أمد بعيد. ان شئت صدّق؛ ان شئت لا... كن على علم فقط أنّه ما من أحد من غير سلالة الأخوين استطاع الإقامة بهذه العمارة، حتّى ذاك الذي بناها، هناك ارتباط شديد لهذا المكان بهذه العائلة.
أنت كنت عابر سبيل فيها لا أكثر.
ثم أشاحت بوجهها عنه وهي تقول بصوت غاضب:

- زيارتك انتهت يا بني!
همّ بالانصراف وصفق الباب خلفه بقوّة.

يتبع...

١ تموز

...

يوم النسيان العالمي

من أغرب الأيام التي يطلق عليها "اليوم العالمي" في الرزنامة، لو قمت بالبحث عنه؛ ربما لن تجده. نسوا اضافته على الأغلب!

ربما لأنها ليست فكرة صائبة فتحديد يوم يصاب الناس فيه بأمنيزيا جماعية تبتلع فيه ذاكرتهم تاريخا من المآسي، يجمعون بقايا ذكرياتهم البائسة للإلقاء بها في قمامة النسيان هو في حدّ ذاته طريقة غير مباشرة للتّذكر!

ماذا كان سيحدث في هذا اليوم مثلا؟ هل يمسك كل واحد ورقة وقلما ويهمّ بتذكّر الأحداث التي عليه نسيانها؟ وبعد أن يعيد الحياة لكل آلامه التي قضى دهرا يحاول إخمادها؛ يضطهد ذاكرته ويضغط عليها للنسيان من جديد؟ بتلك الطريقة سيتحول اليوم رسميا إلى يوم الاكتئاب العالمي دون أدنى شك!

هناك فكرة بديلة... عوض تخصيص يوم للنسيان؛ لِمَ لا ننسى الأيام التي ترتبط بأحداث ليست لطيفة بما يكفي لنرغب في تذكّرها؟ ناهيك عن كون هذه الفكرة توحي بالتهرب والخوف من المواجهة، فهي بمثابة أخذ مسكّن دون محاولة فهم سبب الداء؛ إلا أنها قد تشكل أزمة كبيرة، فلو اعتمدناها؛ لا أستبعد أن يحذف الناس معظم أيام

السنة، وربما أيضا سيقتصر العام على يومين فقط، اليوم الأول والأخير من كل سنة!

حسنا... لمَ لا نقف عند هذا اليوم التعيس بالنسبة لنا ونربطه بحدث جديد سعيد؛ ينسينا الذكرى السابقة ويأخذ مكانها في الذاكرة؟!
أ وليست السنوات كثيرة والأيام سريعة والأحداث لا تنتهي!

... الرسالة (١٤)...

حبل الذكريات معقّد لكن فكّه سهل! بمجرد سحب طرف خيط منه، تتوالى باقِ الذّكريات تباعا ويقف النسيان جانبا... ذاك بالضبط ما حدث مع "صفية". مشكلة الجميع، أن الكلّ يظن نفسه الطرف "الضحية" في أي حكاية، الكل بارع في تبرير دوره في كل حدث، ولم تكن "صفية" الاستثناء من ذاك أيضا! أسبوعان مرّا على جلستها مع "جمال" لكنها لم تتوقف عن التفكير، هدم حديثها معه في لحظة برجا من النسيان استغرقت عمرا في بنائه، ولم يعد في العمر بقية لتبني وتنسى من جديد!
لوهلة تذكّرت مقتل والدها، رغبتها في الانتقام، الحريق...

لعل أقسى تلك الذكريات أنّ "عبد الحق" لم يمت بسبب حادث عارض انتهاء أجله وتصادف مع الملاعنة، بل خطّط الأخ لذلك ليقيم حجة فاسدة عليه ويستبيح أخذ الأرض، لكن القساوة في أنّ "صفية" كانت شاهدة على الحادث المفتعل! تربّت بعدها في كنف عمها "عبد المالك"، قبلت بذلك فقط لتخلق فرصة مناسبة لأخذ ثأر والدها لكن الأجل كان أسبق، فما هي إلا شهور حتّى لحق الأخ بأخيه!
عاشت مع أبناء عمّها الستة، وكي يتسنّى لها أخذ نصيبها من أرض والدها وعمّها؛ كانت ستتزوج أصغرهم بإجماع عائلي، وسافر هذا الأخير طلبا في العلم والعمل. أحسّت "صفية" أن الحياة عوّضتها أخيرا بـ"عبد العزيز" لكنّها بقيت رهينة تلك الفرحة ولم تفرح بعدها! فقد نشب خلاف بينه وبين إخوته حين رفضوا إعطاءه حقه في تركة والده دون سبب وجيه من غير نفوسهم العليلة. انسحب "عبد العزيز" من العائلة دون اعتراض وأسّس حياة جديدة بعيدا عنهم، تاركا حلّ المسألة للزمن، في الوقت الذي اختارت فيه "صفية" أن تلازم أبناء عمّها وحاولت دفعهم للعدول عن قرارهم لكن أبناء "عبد المالك" كانوا كوالدهم، فأعطت نفسها الحق بالثأر لـ"عبد العزيز" دون أن يطلب هو ذلك، وعندما حدث ما أرادت كان هو قد تزوج.

أعادت تقسيم الشقق من جديد وتركت أكثرهم تميزا خالية على أمل أن يسترجعها ويعود لها وطالت قضيته في المحاكم الى أن استحقها حفيده "عزيز".

البعض لا يكتفي بأن تعوّضه الحياة أو تنصره، لن يطيق انتظار عدالة القدر... لن يهدأ حتى يذيق شيئا من معاناته لمن اعتبرهم السبب!
أما إذا قرّر أن يعفو ويسامح؛ فلا هم النّاس ولا حتى الظّروف ستسمح له بذلك، ستأتيه الفرصة على طبق من ذهب ولن يستطيع رفضها. لكنه لن يهدأ حتى لو انتقم! كل ما في الأمر أنه سيخسر جزءا منه في كل مرة يؤذي أحدا، وسيُحال أمام هيئة الحياة من خانة المجني عليه إلى خانة الجاني.

في الشّقة المجاورة لصفية، كانت عائلة "حافظ" تعيش ذكرى مرور أربعين يوما على وفاة فقيدها، يخوضون في كل يوم ألف حرب ليتقبّلوا غيابه. صحيح أن البيت نقص شخصا لكن أرواحه ظلت ثابتة. لا زال المغفور له حاضرا في تفاصيل كل يوم مع أسرته، لا تزال أغراضه في مكانها لم تبرحه، كما لو أنه يعيش في البيت كالسابق، لكنها افتقرت إلى الحياة مثله حين فقدت جدواها.

وكّلت "هبة" نفسها مسؤولية العناية بمكتبته، وأعطت نفسها الحقّ في إمضاء الوقت مع كتبه مثلما كان هو يفعل، واحتفظ "كرم" بساعته الفضية الثمينة ذات السّوار الجلدي الطبيعي المضفور، وعزم أو يورّثها لأبنائه من بعده كي يبارك الله فيهم، أمّا "زكية" فكان نصيبها من تركة "حافظ" أكثر أيام حياتها سعادة التي قضتها في ذاك المنزل برفقته.

بخطوات بطيئة ونظرات فاحصة لعناوين الكتب كانت "هبة" تبحث في مكتبة "حافظ" عن مجلدات القانون القديمة، تقف عند كل كتاب لبضع دقائق تتأكّد من تصنيفه، وتنظر إلى محتواه سريعا ثم تعيده مكانه، حتّى وقع اختيارها على كتاب البداية والنهاية- لابن كثير- أخذت تقلّب الصفحات الأولى منه وهمّت بإلقاء نظرة على الفهرس؛ حتى استوقفها ظرف صغير كُتب عليه بخط يكاد حبره لا يظهر "وصيّتي".

جلست على أقرب مقعد ونادت البقية لتفتحه في وجودهم، احتوى الظّرف ورقة كتابة مصفرة جاء فيها بخطٍّ حبريّ:

حياتنا تستمر بما نتركه لأبنائنا... آمل أن أكون قد تركت لكم ما هو أهمّ من الأملاك وأرصدة البنوك.
أمّا بعد؛
أنا "حافظ عبد الحفيظ" أسمح لزوجتي وأولادي من بعدي- إذا رزقني الله- بالتّصرف في كل ما أملكه باستثناء هذه الشقة (٠٨ شارع الاستقلال – الطابق الأرضي- شقة ٠٢)؛ كما أوصيهم بعدم الاستفادة من أيّ عائد منها، بيعا كان أو إيجارا. وليكن بعلمهم أنّ هذا المنزل للإقامة المؤقتة فقط، وتنتهي هذه الفترة عند تأسيس بيت مستقل خاص بنا.
ألا هل بلّغت... اللّهم فاشهد!
كانت الوصية موقّعة ومثبتة بشهادة جارَيْه في العمارة: مهران وسعد الدين - والد أسعد- وأسفل خطابه وُثّق تاريخ تحرير الوصيّة بالثامن عشر من شهر ماي لسنة ١٩٦٩، وهي الفترة التي انتقل فيها للسكن هنا حديثا بعد زواجه من "زكية".

بعد قراءة الأخوين لمضمون رسالة الماضي بصوت مسموع بالتناوب مرارا وتكرار، حدّقا في بعضهما في محاولة فهم مستعصية، ثم وجّها نظراتهما للأم منتظرين توضيحها.

يتبع...

١٠ آب

يوم الكسل العالمي

تمّ طرح هذه الفكرة لتقابل اليوم العالمي للعمل... مع أن عيد العمال يوم تعطيل أيضا!
هو يوم يمتنع فيه الناس عن العمل ويقضونه في النوم أو الاسترخاء، تعبيرا عن رغبة منهم في كسر النّمطية والرّوتين اليومي. ويكون الاحتفال كالتّالي... يخرج سكان البلدة ويقومون بافتراش أسرّتهم ومراتبهم في الشوارع للاستراحة والنّوم عليها تحت شعار "الكسل عسل".

تعد "كولومبيا" السباقة في التّنظيم لمهرجان كهذا!

هنيئا للكسالى يومهم هذا...

الذين اتخذوا من النوم حُجّة، وخلقوا ليحلموا فقط لا ليحقّقوا أمانيهم،

الدّين لا يعرفون معنى أحلام اليقظة، واستغنوا عن لذة النّجاح مقابل لذة النّوم،

الدّين كلما خذلتهم الحياة دفنوا أجسادهم تحت أفرشتهم ليحاكوا وضعيّتهم في بطون أمهاتهم،

الدّين لا يتجرّعون أكواب القهوة ليحافظوا على نشاطهم ويطردوا الخمول عنهم، الدّين لا يعرفون معنى الأرق والسّهر.

هنيئا لهم فقط لأنّ الهيئات الدّولية قدّرت كسلهم وفكّرت في جعل يوم لهم في الوقت الذي لا يفكرون هم فيه بأنفسهم حتى! وألف أسف لكلّ ما قيل قبل ذلك!

أسفا على العاجزين الذين أقنعوا أنفسهم بأن وجودهم في الحياة لا يفرق فيها كثيرا!

... الرسالة (١٥)...

قدم "عزيز" برفقة "حياة" كعادتهما كلّ صباح ليباشرا أشغال شقّتهما المستقبليّة، فلاحظا حركة غريبة على غير العادة. بتعبير أدق؛ لم تكن هناك حركة إطلاقا! سكون عجيب خيّم على البناية.

بدا كلّ شيء هادئا تلك الصّبيحة فقد ظلّ الجميع نياما، لكنّه كان هدوء ما بعد العاصفة، إذ لم يفارق أحد بيته بعد ليلة البارحة المشؤومة التي غاب فيها النوم عن عيون الجميع قسرا!
كان ليل الأمس قد بدأ يجتاح المدينة ثم...
لم يفهم أحد على وجه الدّقة ماذا حدث ولا كيف حدث، لكن الأكيد أنه في ساعة متأخرة كان فيها اليوم يلفظ أنفاسه الأخيرة؛ دوّى أرجاء البناية صوت دقّات قادمة من كل مكان، صوت غريب لم يسمعه أحد منهم من قبل. استمرّ الصوت بوقع أعلى استفزّ الجميع ليبحثوا عن مصدره، فخرج الأهالي من بيوتهم في انزعاج، كلٌّ يتهمّ جاره بإثارة ذلك الصخب، سرعان ما مكثوا في ردهة الطابق الأرضي حين ثبت أن لا أحد منهم مسؤول عن تلك الضجة. رياح عاتية تواطأت مع الموقف لتزيد في النفوس رعبا، انطلق بعدها صوت موسيقى خافت، قطعة من معزوفة دون كلمات؛ صوت مرعب لكن مصدره مجهول أيضا!

بيده اليسرى القابضة على غليونه، ورغم وجود ابنيه، وجّه "مهران" إشارة لـ"أسعد" و"فيصل" للبحث عن مصدر الصوت، شكّ الأخيرَين في الجميع وفتّشا كل البيوت، لكنهما استصعبا ايجاده لأن الصوت كان ثابت الصدى في كل مكان، لا تتناقص شدته ولا تتزايد، وعندما يئسا انضمّا إلى البقية.
أفصح "ماجد" بحكم خلفيّته الفنيّة أن القطعة الموسيقيّة لبيتهوفن وأنّ عنوانها "سيمفونيّة الموت" فزادت المخاوف وكثرت الاحتمالات السيّئة، بادرت "صفية" بالتعقيب على كلامه لتهدئ من روعهم: "لا تخافوا! الموت يأتي

على حين غرّة، لا يأخذ موعدا ولا يسبقه انذار !" لكنّ نبرة صوتها بعثت القلق في النفوس أكثر.

انتظر " كرم" سكوت الجميع ثم أردف بحماس أنّه قرأ في إحدى روايات الرعب؛ أن أصوات الدّقات المنبعثة من جدران منزل ما يكون مصدرها روح صاحب جثة مدفونة منذ عقود في ذلك المنزل، لكن أحدا لم يأبه لترهات ذلك المراهق؛ إلا "فيصل" الذي أطرق السمع لحديثه وتجاوب معه على أمل أن تُستثار "صفية" فتفصح عن شيء ما تعرفه باعتبارها أقدم ساكنة، خاصة وأنها امتهنت الوساطة الروحية فيما مضى، لكن دون جدوى.

استفاد الفتى الصغير من تلك الجلبة وأخبر الجميع بلعبة العائلات السبعة التي يحتفظ بها، لكنه لم يُأخذ على محمل الجد أيضا. ليثبت صدق كلامه، طلب من "رائد" و"سيف" مرافقته إلى شقته، وبالفعل أحضر العلبة وكشف عن البطاقات لهم جميعا. لم يُفد ما قاله في شيء سوى أنه أضاف المزيد والمزيد من علامات الاستفهام التي لا جواب لها؛ "هل البناية مسكونة أم ملعونة؟" سؤال جال في ذهن السيدة "زكية" وابنتها خاصة بعد عثورهم على وصية "حافظ".
"هناك حتما من يتلاعب بأعصابنا". قناعةٌ احتفظ بها "مهران" وفضّل الجلوس بهدوء في ترقب، وكالعادة لم تحسم "وداد" موقفها من تلك الأحداث، كانت تنتظر أن يفصح زوجها عن موقفه كي تؤيّده.

لم تكن تلك أحداثا يمكن أن يُغضّ الطرف عنها؛ وإن كانت بلا معنى أو سبب يذكر، رسم القلق تعابيره عنوة على وجوه الجميع دون استثناء؛ بطريقة يصعب فيها تحديد إن كان ما يحدث من تدبير أحدهم.
لم يعبأ الكبار بتلك القصاصات الكاريكاتيرية، لكن الشباب تدافعوا كل يبحث عن صورته أو يجمع أفراد عائلته، فساهم تعليقهم على الرسومات في التخفيف من توترهم.

لم تستهوِ الأحداث "صفية" فعادت إلى شقتها تاركة بابها مفتوحا، وانتهى الوضع بالبقية أن تجمّعوا كلّهم في مكان واحد خشية أن يصيبهم مكروه إذا تفرّقوا، فجلسوا عشوائيا على سلالم العمارة بعد أن أنهكهم الوقوف؛ الشّباب ثبتوا سماعات الهواتف وشغلوا موسيقات أخرى، و"زكية" تحديدا ضمّت "نجمة" و"هبة" إليها وراحت تذكر آيات وأدعية، أما البقيّة فتحدّثوا الى بعضهم في مواضيع مغايرة متجاهلين الصّوت.
توقف الصّوت مع آذان الفجر، فرجّحوا احتمال الشياطين والأرواح الشريرة أكثر، وظلّوا على حالتهم تلك قرابة الساعة ليطمئنوا أكثر ثم اتّجه كلّ منهم صوب شقّته وأقفل الباب عليه!

يتبع...

١٥ أيلول

اليوم العالمي للدّيمقراطية

...

يومٌ يعزّز فيه النّاس في جميع أنحاء العالم قيم الحريّة واحترام حقوق الانسان!

من مغالطات فهم الدّيمقراطية؛
أنها ليست مذهبا أو نظاما سياسيّا، ولا تحتاج اقترانَها بايديولوجيات،
ليست شعارا يُحفظ أو يُهتف للمطالبة به، ولا نداءات وادّعاءات زائفة،
ليست حرية منشودة زعمت القوى العالميّة أنّها المبشرة بها ولوّحت بها لشعوب العالم الثالث،
ولا وسيلة لاستغلال تطلعات الجماهير وإثارتهم،
ليست وصفة جاهزة يصدّرها دعاة الحريات إلى العالم العربي السّباق بهذا المبدأ في تعاليم اسلامه،
ولا كلمة افتتاحيّة في قائمة استبداد ودكتاتورية طويلة؛ للتمويه.

لا مجال للحديث عن الدّيمقراطية في وقت يسجل فيه تاريخ البشريّة مواقف ضد الانسانيّة يوميا،
ماذا كان دور الدّيمقراطية في روايات الحضارات المنسية والشعوب المظلومة؟ الوقوف على قبر القيم الانسانية وترك باقة منتقاة من عبارات التّفهم، ونشر نعي بالخط الكبير مُوقَّع باسم حقوق الانسان؟

مارسوا الدّيمقراطية كما تشاءون! هلّلوا بها في الخطابات! ادّعوا واحتفلوا... اجعلوا لها يوما وأيّاما!
لكن اجعلوا يوما للإنّسانية رجاءً!... نحن نحتاج هذا اليوم أولا.

... الرسالة (١٦)...

تنازلت العائلات أخيرا وأجمعت على عقد جلسة في منزل أحدهم؛ ليفهموا ما يحدث من حولهم ويتناقشوا في القضية، حتى يقرر كلٌّ مصيره.

رشّح الجنرال أن يكون اللقاء في منزله ليكون رسميّا أكثر، واقترحت "صفية" أن يكون في منزلها فناسب ذلك الجميع، واتّفقوا أن يكون الموعد في حدود السابعة ليلا، حين يتفرغ الكلّ كي لا يتغيّب أحد.
وتمّ اللقاء بالفعل.

في غرفة الاستقبال أخذ كلّ مكانه... "زكية" و"هبة" و"كرم"، "مهران" و"نجمة" و"وداد"، "حياة" و"عزيز"، "ماجد"، "سيف" و"رائد"، "أسعد" و"صفية" طبعا... حتى "فيصل"!

بعد صمت رهيب قاطعته زفرات أنفاس متأفّفة، افتتح الجنرال الجلسة بأسلوب بطيء مرهق لأعصاب المستمعين:

- الوضع الذي عايشناه في الفترة الأخيرة واضح، لا داعي للقيل والقال، فلندخل في صلب الموضوع مباشرة! من كلّ بيت سيتحدث ممثل واحد ليجيب نيابة عن أفراد أسرته.
من مع فكرة بيع البناية؟ ومن رافض؟ مع ذكر الأسباب... سيتم التّصويت ويُؤخذ القرار حسب رأي الأغلبيّة.

فعبّر كل منهم بحركة معيّنة دلالة منه على موافقته، ثم خاطب فيصل:

- أنت ستشاركنا الجلسة فقط، فمكان إقامتك ملكٌ للسيدة "صفية" كما تعلم.

هزّ رأسه هذا الأخير متفهّما وواصل مهران:

- بما أنّ الكلمة لي، سأبدأ أنا. مبدئيا لا اعتراض لديّ! صحيح أنني رافض للطريقة والمبدأ الذي يجعلنا نخشى البقاء في المكان... لو تلاحظون نحن

نُطرد من بيتنا بشكل رسمي، لكنّي شخصيّا لا أملك في هذا البيت شيئا مميّزا يجعلني أتعلقّ به، ولن أبقى فيه لمجرد العناد.

حان دور "صفية" فقالت بصوت مجهد:

- أنا ضد التّنازل عن البيت! ولا أرغم أحدا على رأيي... كل ما في الأمر أنّني قضيت أكبر فترة من عمري هنا ولا طاقة لي لأبحث عن مكان جديد، كما أنه لم يعد في العمر بقيّة لأجهّز بيتا وأسكنه؛ في وقت أقصى ما يمكنني فعله هو تجهيز نعشي.

أيّدها "أسعد" قائلا:

- وأنا من رأي الحاجّة "صفية"، أرفض ترك منزل والداي- رحمهما الله- فهذا ما تبقّى لي منهما، لن أستطيع التنازل عن بضع ذكريات أعيش عليها من وقت لآخر لأسباب لا يقبلها عقل أو دين!

تبعه "ماجد" محاولا إخفاء أي عاطفة في نبرته:

- قد يبدو رأيي غريبا بالنسبة لكم؛ فأنا تقريبا لا أقيم في البيت، لكّنني ضد الفكرة أيضا. لا يزال جزء مني ينتمي لهذا المكان، هويتي... كياني... ذكريات وان لم تكن جميلة بما يكفي لكنّها في النهاية "أنا"!

أخذت "زكية" الكلمة حينما لاحظت أنهم ينتظرون رأيها:

- يعلم الله حجم المشاعر التي أكنها لهذه البناية... أمضيت شبابي هنا، أسعد اللحظات وأصعبها. كنت قد خطّطت مسبقا أنا وزوجي-رحمة الله عليه- على تغيير منزلنا ليناسب احتياجات أطفالنا، وبالفعل... البيت الذي أسّسناه يوشك أن يكون جاهزا. أنا في غنى عن المشاكل والصّراعات؛ أريد عيش ما تبقّى من عمري في هدوء، لذلك أنا مع ترك البناية، لكن لن آخذ أيّ مستحقات لإخلائه امتثالا لوصية المرحوم!

بعد تشاورٍ مع "حياة" تكّلم "عزيز" أخيرا:

- أنا أيضا أؤيد المغادرة! سيبدو موقفي غبّيا بعد التجهيزات والمصاريف التي أنفقتها في شقّتي، لكن كما يعرف الجميع أنا أسعى لتأسيس بيت جديد، ربّما لم تكن فكرة إقامتي في هذا البيت صائبة منذ البداية والأوضاع الحاليّة غير مبشرة بالخير ولا توحي ببداية جديدة إطلاقا!

أُحبط الجميع لأن أصواتهم لم تُحدث فرقا في حين نطق "فيصل" بنفاذ صبر:

- نتيجة التّصويت ثلاثة "مع"... ثلاثة "ضد"... تعادل! كأنّنا لم نفعل شيئا، أستغرب برودكم صراحة. لِم لا أحد منكم يبحث عن تفسير لما حدث مؤخرا؟ لِم لا أحد يتساءل... ما العمل الآن؟
علينا أن نتّفق؛ هناك مثل شهير يتوافق مع وضعنا مفاده "إمّا أن تفعل كما يفعل جارك أو تغيّر عتبة دارك"
برأيي من يريد البقاء يبقى ومن يرغب في الرحيل يرحل! يستحيل أن نُجمع على قرار موحّد فلكل أولوياته في النهاية.

استغرب الجميع طبع "فيصل" الاجتماعي الجديد وصيغة الجمع التي كان يتحدّث بها، لكنّهم لم يبالوا بالأمر؛ نظر كلّ لساعته أو هاتفه وتحجّجوا بالمغادرة معا، بقيت الجلسة مفتوحة ولم تحسم!

انشقّ أهل البناية يومها الى فئتين، فئة مهوّلة للوضع، أعطت الأحداث أكثر من صداها لتبرّر لنفسها وللبقية سببها للمغادرة وهجر العمارة، في حين أن قرار الرّحيل كان نافذا منذ البداية لم يكن يحتاج لعنة لتبرير الهروب. وفئة تفادت السّؤال عموما خشية أن يكون في الأمر لعنة حقيقية أو ما شابه، والحقيقة أن لا أحد من تلك الفئة كان مستعدا للتّخلي عن منزله لسبب خرافيّ في النهاية!

يتبع...

٩ تشرين الأول

يوم الفضول العالمي

...

يوم برعاية المتطفّلين الموجودين في حياتنا باستمرار، وكلاء الاستخبار الذي يبحثون عن معلومات عنا لا تخصّهم ولا تفيدهم في شيء.

شيء يبدأ بفضول وحب استطلاع وينتهي بتدخل في الشّؤون بعد أن يكون قد مر بمرحلة المراقبة أو التّجسس!

معذورون ربما هم أناس لا يتحمّلون أن يحدث شيء في الكون دون علمهم، فالفضول خامة بشريّة فطريّة.

يمكننا أن نحسّن نوايانا ونعتبره مجرد شغف للبعض منا في معرفة الحقيقة، محاولة فهم للظواهر التي تحدث من حولنا لإزالة الغموض... لا أكثر!

الفضول قاتل في الحالتين؛ لن يفرق أن تكون فضوليّا أم لا...
إمّا ستموت جهلا بأشياء كان لا بدّ أن تحيطها علما!
أو ستموت بمعرفتك أشياء ما كان يجب أن تعرفها!

... الرسالة (١٧)...

توقفت شاحنة النقل أمام العمارة، بعض الأثاث الذي اختاره زوجا المستقبل كان قد وصل.
غابت عن ذهن "عزيز" و"حياة" فكرة تأجيل يوم الاستلام حتى يحسما فعلا إن كانا سيبقيان في العمارة أم لا. لكن عمّال المعرض وضعوهما أمام أمر واقع حين نزّلوا الشحنة وتركوها في باحة الطابق الأرضي.

وقف "عزيز" يتأمل القطع الخشبية الثقيلة مخمّنا من أين سيبدأ بحملها وكيف، فحاولت "حياة" التدخل:

- لا أعلم كيف؟ لكن سأساعدك...

ثم أضافت:

- ما رأيك أن تطلب العون من جارنا الذي ساعدك يوم مشكلة تسرّب المياه؟

قبل أن يجيب رفضا أو إيجابا، فتح "فيصل" شقته وهمّ بمغادرتها فاستغل "عزيز" الموقف، وطلب منه مساعدته في رفع الأثاث إلى طابقه، فلم يعترض الآخر وأنهيا المهمة في ظرف نصف ساعة.

بينما كانت "حياة" في شقّتها تلمّع الأثاث الجديد سمعت صوت رنّة هاتف، تفقّدت هاتفها وهاتف "عزيز" فلم تجد أي إشعار بمكالمة صادرة، بحثت في الأرجاء فوجدت هاتفا محمولا من الطراز القديم؛ ذاك الذي يحمل أزرارا فرددت باستغراب:

- لمن هو يا ترى؟ لعزيز! لا أعتقد... هل نسيه أحد العمال بالخطأ؟

كان "عزيز" قد نزل للتّو فراحت هي تتفقّد المكالمات والرسائل لتعرف صاحب الهاتف وتشبع بعض فضولها؛ كانت السّجلات خالية تماما ماعدا آخر رقم فهمّت بالاتصال به بنيّة إعادة الأمانة إلى صاحبها. في تلك الأثناء ومع

ثاني جرس لاحظت وصول رسالة، ألغت المكالمة وفتحت الرسالة فاكتشفت أنها من صاحب الرقم نفسه، جاء فيها...

(دعك من الحيل السخيفة! افعل شيئا جادا يبعثر الأجواء ويشوش العقول، خلافات عائلية أو أزمات... ركّز بالأخص مع من يرفضون المغادرة و"صفية" تحديدا. انهِ لي هذه المسألة في أقرب وقت، لقد طال الأمر)

لم يسمح لها صاحب الرسالة بقراءة المحتوى ثانية والتّمعن فيه لأنّه اتّصل من جديد، فتحت مع أول جرس ليجيبها صوت أجش غاضب: (ماذا هناك يا فيصل؟ انتظرتك لأكثر من ساعة ولم تحضر...)
فأقفلت الخط لا ارادياً!

تراود إلى ذهنها مشهد "فيصل" و"كرم" عند صندوق الطرد، ألحقت خيوطه بما سمعته من البقية عن اللعبة الغريبة والأصوات الليلية؛ لتختصر الأحداث الأخيرة في كلمة واحدة؛ "فيصل".

لم تفكّر في مواجهته ولا في إحاطة البقية وقبلهم "عزيز" بالأمر، لم ترد إشغال تفكيره بصراع لا ينتهي ومؤامرات تهدّد حياتهما المستقبليّة، فكّرت فقط في إقناعه بترك المكان في أقرب فرصة، وركّزت في البحث عن بيت بديل بعد أن قرّرت التخلص من الجهاز في مكان ما من العمارة، وبرّرت تصرفها لنفسها بأنّ من يستحق معرفة حقيقة شيء؛ عليه ببعض من قوة الملاحظة وكثير من الفضول، فلا أحد يستحق أن تأتيه الحقائق على طبق من ذهب ما دام لم يبحث عنها من الأساس!
لكن ما سبق لم يمنعها من أن تكون بالمرصاد لخطوات "فيصل" في العمارة منذ تلك.

يتبع...

١٦ تشرين الثاني

...اليوم العالمي للتسامح...

...

مبادرة من المؤتمر العام لليونسكو، يوم دعت فيه الجمعية العامة للأمم المتحدة شعوب العالم لترسيخ قيم وثقافات التسامح والاحترام والتآخي بين المجتمعات، ونبذ كل مظاهر التعصب والكراهية!
التسامح سمةٌ لطالما احتجناها وبحثنا عنها، لكننا نادرا ما نطلبها أو نهبُها!
أليس الأقربون أولى بالمعروف؟ كأن نسامح أنفسنا أو نسامح من أحببناهم وأحبونا مثلا...
أن تملك القدرة على مسامحة غيرك هو أن تكون متصالحا مع نفسك أوّلا؛ فلا تعرف الخصام واللوم.
لكن؛ ماذا عن المعادلة الثابتة " على قدر الهوى يأتي العتاب"؟... هل حبّنا للأشخاص دافع لنسامحهم أكثر مهما أخطئوا، أم لنعاتبهم أكثر لأن تصرّفهم لم يكن لائقا بنا ولا بهم؟!

ماذا لو لم يطلب أحدهم العفو؟ من المتعارف عليه في كل المعاملات الانسانية والادارية أن لا أحد يأخذ شيئا دون أن يطالب به! وماذا عن الذين لا يطالبون بالاعتذار والذين لا يعلمون أنهم أخطئوا بحق غيرهم! أيّ حكم يسري على هؤلاء؟
لا أحد يستطيع الإنكار أن عدم الاعتذار عمّا بدر منا في وقته سيجعل الاعتذار صعبا للغاية لاحقا، لكن... ليتنا نتفهّم أنّ كبرياء

عدم الاعتراف بالخطأ وقتها ليس من باب عدم التّنازل للاعتراف؛ إنمّا في احتمالية لو لم يكن الاعتذار كافيا للصفح والغفران. ليتنا نقدّر قدوم المعتذر ونحفظ بواقي كرامته، كي نستطيع النّظر إلى بعضنا والتعامل بأريحيّة ودون تكليف لاحقا!

الجديرون بالاعتذار هم أولئك الذين كان يُفترض بنا أن نراهم حين صادفناهم؛ لكن صخب الحياة حال بين ذلك. وأولئك الذين لا يزالون يحفظون أسماءنا، لكننا إذا قابلناهم لا نذكرهم. وأولئك الذين علّمونا دروسا قيّمة؛ فلم نغلق عليها في ذاكرتنا كما يجب. وأولئك الذين شاركونا شقاءنا وعثراتنا؛ فانفردنا عنهم بلحظات الفرج. وأولئك الذين أحببناهم كثيرا؛ لكننا اقتصدنا في مشاعرنا وأظهرنا لهم ما هو أقل. وأولئك الذين حكمنا عليهم مسبقا؛ حين لم نحسن التّعرف عليهم. وأولئك الذين خُنّا اعتقادهم ولم نكن مثلما رأونا... وغيرهم كثيرون!

... الرسالة (١٨)...

تنفّس "فيصل" بانتظام محاولا كتم صوت أنفاسه والحفاظ على هدوء أعصابه في آن واحد، ثم تسلّل خلسة بخطوات سريعة إلى شقّة "صفية"... كان باب شقتها مفتوحا كعادته.

في آخر مرة دخل هنا -يوم الجلسة العائلية للجيران- كان قد تفقّد معالم المكان جيدا وطابقها مع المواصفات التي أخبره بها "جمال"، قدم اليوم ليّنفذ الخطّة البديلة الأخيرة؛ يأخذ العقود ويسلّمها له وينهي دوره!

دنا من خزانة أواني تقديم الطعام وفتح أدراجها السّفلية بحذر، راحت يداه تبحثان بين الأوراق بحركات انسابية قليلة قدر الإمكان.
بدأت قطة "صفية" في المواء فزاد توتّره، ومدّت الأخرى يدها مداعبة قطّتها قائلة من دون أن تلتفت صوبه:

- كفّي عن إصدار الصّوت يا "ونيسة"... أنت تزعجين ضيفنا، لا تشتّتي تركيزه فهو يبحث عن شيء مهم على الأغلب!

تفاجأ وتراجع إلى الوراء، كان سيرفع يداه من هول الصدمة لكنّه اصطدم بعد خطوتين بأحد المناضد، فأسقط حامل الشّموع النّحاسي وأحدث ضجة، فواصلت هي:

- أرأيتِ يا "ونيسة"؟ لقد أرعبناه المسكين!

كان سيسأل؛ "كيف تفطّنت لوجودي؟" لكنّه لم يقدر على الكلام، ظلّ واقفا يحملق بوجهه في ارتياب ودهشة؛ بعد أن استحوذت أنفاسه السّريعة وضربات قلبه الأسرع على كلّ طاقته. ضغطت "صفية" عليه أكثر بقولها:

- قل لي عمّا تبحث يا "فيصل" فالبيت بيتي كما تعلم، بإمكاني مساعدتك وتوفير الجهد والوقت عليك!

لم تنمّ أساريره عن وقع المفاجأة، لكن دوامة الأفكار أخذت به في كل حدب واستقرت به عند إحساس قاطع أنّها تراه، فسأل آملا أن تُشكّك حدسه:

- هل تبصرين فعلا؟ كنت تخدعيننا طوال تلك الفترة؟

لم يكن هذا مجرد سؤال بلاغي، لقد انتابه فضول قاتل ليعرف الإجابة، راحت العجوز تضحك بطريقة هيستيرية؛ بالغت فيها فأصبح أداؤها أشبه بمشهد تمثيلي لا يتناسب مع تحكمات سنها؛ دفعت رأسها إلى الوراء قليلا مواصلة قهقهتها، ثم قالت مبرّرة محتفظة بوضعيتها تلك:

- ألا تعلم أيها المثقف أن للبشر أكثر من خمس حواس وأنهم يسمعون أكثر مما يرون بمراحل؟ وأن الكفيف تحديدا يرى بأذنيه فيستطيع أن يزن شخصية الماثل أمامه من حشرجة صوته وتتابع زفرات أنفاسه؟ وأنّ حدس سيّدة عجوز احتكت بأشخاص لا حصر لهم كاف لاستشعار ما لا يستطيع البصر تمييزه؟
دعنا من هذا الآن! يمكنك البحث عن الباقي في كتبك... عمّا كنت تبحث؟

لم يُجب "فيصل"، كان ما يزال يحدّق فيها بعينين متفحّصتين؛ يحاول إمساك عينيها المتخفّيتين وراء نظارة العجز بالجرم المشهود، ويبحث في كلامها عن أي معنى ليتسنى له الاقتناع أنها لا تراه. أمّا هي فواصلت متخذة من إيماءات المكفوفين المبالغ فيها قناعا لتزيد من ريبه:

- منذ أن تصادفنا أول مرة ولاحظتُ إلحاحك للسكن المؤقت بالعمارة، أدركتُ أن ذلك الإصرار لم يكن وليد رغبة عابرة. لم أقتنع بقصّة اقتناء الكتب ودراسة الرّوحانيات، في البداية ظننتك من طرف شخص يدعى "جمال"، كان قد استعطفني بنفس الطريقة قبلك، خِلتها لعبة من ألاعيبه ومع ذلك قلت: ما المانع يا "صفية"؟ مثلي أن الخدعة انطلت عليك وتحكمّي بمعرفتك.

استغرب "فيصل"، ما دامت لا تقصد هذه الحقيقة؛ عن أيّ حقيقة تتحدّث! فتكلم أخيرا:

- وماذا جدّ بعد ذلك؟
- دخولك بيتي... تأمّلك في كافة أطرافه كما لو أنّك تطابقه مع ما قيل لك... أسئلتك عن الماضي وعن الحريق... وقوفك عند هذه الصورة بالذّات.

وأشارت إلى الصّورة الوحيدة المثبتة على الجدار في برواز عتيق وأضافت:

- اسمك... وتردّدك للحظات قبل أن تفصح عنه، صوّر لك دهاؤك أنني لا أعرفك ولا حاجة لتلفيق اسم مزيف، "فيصل" حفيد "عبد العليم"... القطعة الناقصة لتكتمل سلالة "عبد المالك".

شهق فيصل في دهشة مفادها أي عجوز هذه! لكنه اكتفى بالإصغاء إليها فقط.

- بالمناسبة... الصّورة التي رأيتها لم تكن لجدّك، كانت لأخيه "عبد العزيز"، فالاخوة الستة يشبهون بعضهم، لكن "عبد العزيز" كان غيرهم!

وواصلت بعد أن زفرت بارتياح:

- أخيرا!... اكتملت المجموعة تحت سقف واحد، كنت سعيدة بقدومك وقرّت عليّ عناء الطريق إليك.
في الحقيقة لم يتعبني أحد؛ كلهم أتوا بإرادتهم لقدرهم... في كل مرة أشكك بين وبين نفسي في أصل اللعنة وكيف أن المكان ظلّ أسيرا لها منذ أن كان قطعة أرض ورفض استضافة أي شخص خارج شجرتنا العائلية؛ يأتي غصن منكم ليؤكد لي صحة الاعتقاد. أ لا ترى ذلك؟... كن منصفا!

رفع حاجبه الأيسر محاولا استيعاب ما يقال، وجلس على مقربة منها بعد أن تخدّرت رجلاه:

- ماذا تقولين؟...

طغى على حديثها أسلوب العجائز حين يسردون لأحفادهم أساطير يستحضرها خيالهم وقتها وخاطبته بنبرة مجهدة:

- العائلات التي تسكن العمارة حاليا هي امتداد للعائلات التي عمّرت المنزل منذ سنوات، والغريب أنهم لا يعلمون بصلة القرابة التي تجمعهم، بيت "حافظ" و"مهران" فقط لأن الرابط بينهم واضح!
أصابوا حين نسبوا العائلة للشجرة، فأغصانها تتفرع في اتجاهات مختلفة وتتباعد جيلا بعد جيل لكن جذورها تظل واحدة.
لِم جئتَ يا "فيصل"؟ لتنتقم لجدّك؟

لم يكن سؤالها مفاجئا بالنسبة له؛ ما كان يجهله هو إلى أي حد يمكن لجوابه عن سؤال هو نفسه غير مقتنع من إجابته أن يتسم بالإقناع، فليس متأكدا بعد إن كانت دوافعه للقدوم والعيش هنا كافية!
أجاب عندما استطاع النظر إلى عينيها أخيرا:

- جئتُ لأرى المرأة التي وصفتها جدّتي في كل حكاياتها في صغري، البطلة الشّريرة في كلّ قصة! قيل لي أنّكِ السبب في الحريق الذي اندلع؛ لتستبيحي مبلغ التأمين على البناية بعد أن اختلفتِ مع رجال العائلة، لا أعلم ما صحة إقدامك على ذلك. قيل لي أيضا أن التحقيق لم يجد سببا ماديا للحريق ولا أعلم ما صحة هذا المعتقد أيضا، جئت لأراك عن قرب وأحكم على تلك الظنون بنفسي.
- وما كان حكمك؟

صمت للحظات محاولا تدارك شروده ثم ردّ بصوت أنهكه الذهول:

- ستصدّقينني إن قلت لم أقوَ على ذلك؟... كان لهذا المكان تأثير كبير عليّ لدرجة أنني لم أستطع التفكير سوى بوالدي ومعاناته عقب حادثة الحريق المروّعة ؛التي عايشها في طفولته وجعلنا نعيش معه هذه المعاناة لسنين، ظل حبيس شعوره بالذنب لاعتقاده أنه كان بوسعه إنقاذ والده الذي مات أمام عينيه، واستمر يستعيد ذكرى الحدث في شكل كوابيس حرمته النوم ثم تحول الوضع إلى هلاوس يقظة.

فهمتُ لاحقا أن اضطراب ما بعد الصدمة ولّد لديه رهاب النار، عاش توترا وشعورا مستمرا بأنه غير آمن وغير قادر على حمايتنا، وأُرغم على الإحساس الدائم بحالة التأهب القصوى وأخذ الحيطة. كان إشعال فتيل شمعة في كعكة عيد ميلادي كفيلا باسترجاعه شعور العجز والرهبة، ثم تأزم الوضع أكثر وصارت نار المدفئة أو موقد المطبخ كافية لإعلان حالة طوارئ في منزلنا، لم تتحمل والدتي وسواسه القهري ذاك وهو من جهته حاول التغلب على نقطة ضعفه تلك، فكانت نتيجة ذلك استنفارنا كل ليلة على رائحة دخان، حتى بتُّ أعاني نوبات سعال ليليّ تلازمني إلى يومنا، وعندما لاحظت أمي كيف أن حياتنا معه تحت السقف ذاته، صارت مهددة في أي لحظة انتهى بها الأمر أن هجرته. الغريب أنه بعد كل هذه الدراما صار لدي هوس بإضرام النيران... صرت لا أخافها بل واستمتع بلهيبها!

قاطعته شارحة قبل أن يلج في تأويلات شتى:

- وأنا لا أعلم إن كنت ستصدّقني، لكنني لم أفعلها! لقد تراجعت حين شعرت بالغيظ لمجرد التفكير أن بموتهم مبكرا قد أقدّم لهم معروفا وأعفيهم من معايشة ما ينتظرهم من نكال دنيويّ، إن كان قانون الجرائم يعاقب على النوايا والمسبّبات، فأنا جانية؛ نويت حرق العمارة فعلا وأنا السبب في الحريق، لكنني لم أفعل!

حافظت السيدة العجوز على وضعية دفاع دائم دون أن تسمح للاستعطاف بالتسلّل إلى نبرة حديثها وتابعت:

- اقتنيتُ مواد سريعة الاشتعال وخبّأتها في غرفة الخردوات أسفل السلالم؛ أينما كنا نحتفظ بعبوات الدّهان ومستلزمات البناء ومواد أخرى بلاستيكية، كنت قد عزمت أن أنفّذ في اليوم الموالي لكنّني استيقظت ذلك الصباح مستبعدة الفكرة، ثم تفاجأت بالحريق الذي لم أسلم منه أنا أيضا، رجّحتُ أن المواد تفاعلت فيما بينها فمحوت أدنى أثر لذلك.

لم يستطع أن يمنع نفسه من الغضب وهو يجيب :

- هذا لا يغيّر النتيجة... أنت السبب في كل الأحوال! لم آت لأخذ الثأر كما سبق وخمّنتِ، أنت لم تخطئي بحقّي فليس لي حق لا في العفو ولا في الانتقام.

هناك أشياء تحدث لهدف ما فتتحقق معها أهداف أخرى، لكن العكس حدث مع "فيصل"، دوافع كثيرة قادته إلى سلالم البناية؛ ساقه فضوله ليرى "صفية" التي تخيّلها دائما ويحكم بنفسه هل كانت تستحق كل حقده عليها، مثلما قاده حبّ اطّلاعه على أساليب التخاطر التي كانت موضوع دراسة تشغله فقدم ليتأكد من احتمال أن للعرّافة قدرة على اشعال الحرائق ذهنيا، وأيضا بحكم وظيفته بوكالة "جمال" للعقارات الذي أسدل إليه مهمة إخلاء العمارة مقابل عمولة؛ باعتباره أكثر مُسوّق ووسيط عقاري محترف.

في نهاية المطاف لم يستطع أن يحسم بين هدفه الرئيسي للقدوم إلى هنا وبين الذرائع التي تبنّاها، مثلما لم يجد سببا للمغادرة بعد أن كشف كل أوراقه، ربما كانت "صفية" محقّة حين قالت أن البناية تستقطب ساكنيها!

يتبع..

١٧ كانون الأول

يوم الأخوان "رايت"

...

في هذا اليوم من سنة ١٩٠٣ حقق الشقيقين الأمريكيين "أورفيل" و"ويلبر" رايت تجربة طيران ناجحة لأول طائرة بمحرك في التاريخ، ولا تزال صور طائرتهما تملأ طوابع البريد والتذكارات لتكون بذلك أشهر طائرة في العالم!

غير أن التاريخ قد ذكر محاولات مبكّرة جدا لاختراع الطائرة كان أولها للعالم العربي"عباس بن فرناس" الذي استخدم الجناحين.

حلمٌ لطالما راود الانسان، وهو التحليق في السماء كالطيور، مثلما حلم بالغطس مع الأسماك في أعماق المحيطات، وكأنه لم يكتف بالعقل ميزة بشرية عن باقي المخلوقات وأراد منافستها في مجالاتها!
طمع أم طموح؟

أن ترغب في امتلاك كل شيء مصير حتمي لفقدانك كل شيء، ببساطة لأن عدم اكتفائك بالشيء قد يجعله يتخلّى هو عنك!

... الرسالة (١٩)...

يا له من جو بارد تآمريّ يطغى عليه شعور أشبه بجرس الإنذار حين يعلن بداية العد العكسي لحدث ما، فقد قاربت السنة على الانتهاء واجتمعت العائلات من جديد تحت سقف واحد، اجتمع أبناء وأحفاد من ماتوا سابقا في نفس المكان.
يفترض أن يكون اليوم أخر أجل للمهلة التي حدّدها جمال لقاطني العمارة لإخلائها بشكل ودّي؛ الواضح أن هدر مزيد من الأيام لم يعد يسعفه؛ فتنازل عن طهي خطته على نار هادئة وقرر التسريع بذلك معلنا عن بطاقته الرابحة الأخيرة، حتى وإن كان سيكلّفه ذلك أكل الطّبق الذي تعب في تحضيره؛ باردا لا طعم له.
كان قد فاجأهم قبل أسبوع أنه يملك وثائق ملكية للبناية، وأنّه المفوض الرّسمي لشركة أجنبية تدّعي أحقيّتها بالملكية العقارية؛ مستدلة بعقود توثيق تعود إلى العهد الاستعماري، مسجلة بأسماء معمّرين غادروا البلاد بعد الاستقلال؛ عاد ورثتهم لاسترجاع أملاكهم المزعومة.

لم تحسم أي عائلة قرارها بالمغادرة، لم يأخذ أحد كلامه على محمل الجد بالرغم من أنه هدّدهم بقرار إخلاء رسمي وظلّوا ينتظرون.
في الثانية زوالا من ظهر ذلك اليوم؛ أتى الواقع على حين غرة جارفا للتوقعات صادما أصحابها. لقد دوّى انفجار مهول أرجاء العمارة وهزّ أركانها، ثم بدأت ألسنة لهب مجهولة المصدر تتغذى على أي شيء وجدته صوبها، وبعد لحظات نشبت النيران في كل البيوت شيئا فشيئا، مخلّفة حريقا هائلا تصاعد إلى السماء في شكل أدخنة سوداء؛ نجحت في الفرار من الشرفات.
في حالة من الذعر المباغت هرع الجميع للخارج، رائحة الدخان في تزايد، العيون تدمع بشدة والكل يأخذ أنفاسه بصعوبة، بعد أن استولى الهلع على ملامحه ويهرول مزاحما الآخرين إلى بوابة البناية الوحيدة، محاولا النجاة

بنفسه وبأقرب شيء وجده أمامه. نزل الجنرال مهران حاملا حقيبته الدبلوماسية لما فيها من ملفات سرية وتبعته "وداد" مع ولداه يحملان "نجمة" التي أغمي عليها بعد استنشاق دخان الحريق، وخلفهم "زكية" ممسكة بمعصمي ولديها، نجح "عزيز" و"حياة" في النجاة بنفسيهما من تلك الشقة ولم يهتمّا بإنقاذ أغراضهما التي لها قيم مادية فقط، أما "ماجد" فخرج حاملا مزهرية والدته، في حين لم يغادر "أسعد" المكان قبل أن يأخذ جهاز حاسوبه المحمول المخزن عليه كتبه وملفات مرضاه وصوره العائلية.
غادر "فيصل" العمارة كما دخلها حاملا علبة الكرتون التي أوقعها أثناء التدافع على البوابة، فاتضح أنها احتوت ألعابا نارية قديمة، مسدسات مائية ودفتر تلوين التّنانين النارية، أعاد جمع بواقي طفولته ثم ألقى نظرة على النّاجين في الخارج ليكتشف أن "صفية" لم تكن بينهم! أسرع لإنقاذها لكن بيتها كان مقفولا والنار تحيط بحدود عتبته، لفّ نفسه بغطاء مبلّل وحاول جاهدا كسر الباب لكن البيت لم ينفتح، حذّره البقية ثم منعوه وأخرجوه معهم قسرا.

كانت "صفية" في الداخل، جالسة ببرود شديد خالعة نظارتها السوداء؛ تتخيل شرارات اللهب وهي تلتهم بواقي صورة "عبد العزيز" غير مبالية بالنيران التي أُضرمت في جسدها. على ضوء النيران ودفئها ووسط ذكرياتها الملتهبة؛ احترقت الشمعة إلى آخر فتيل من جسدها! كان مشهدا بالغ السريالية، كورقة خريف تستسلم لنسيم عابر فتترك نفسها لتهوى أرضا دون أدنى مقاومة، مشهد ليس من اليسير على أحدث عدسة رقمية التقاط تفاصيله كلها واستيعابها في صورة واحدة. ماتت "صفية" مثلما مات حزنها وسعادتها بداخلها حين لم تجد من تخبره بهما، مثلما ماتت من قبل وحيدة حدّ الاحتراق.
ومات معها سر لعنة العمارة.

هل هي من أضرمت النّيران هذه المرة أم شخص آخر؟ أم أن الحريق صدفة غير مقصودة ناجمة عن تماس كهربائي أو بين مواد قابلة للاحتراق؟ أم أنّ لعنة الأرض لحقت أبناءها عندما اجتمعوا فيها جميعا من جديد؟! أم أنها انتفضت حينما حاولت يد أخرى الاستيلاء عليها؟
و الأهم هل كانت "صفية" تستحق تلك النهاية؟...
هناك أسئلة تُطرح لتبقى بلا أجوبة ومن الضروري تقبُّلها كما هي.

يتبع...

١٨ كانون الأول

اليوم العالمي للغة العربية

...

لغة الضاد. لمَ هذا الحرف بالتحديد؟
لأنه الحرف الوحيد الموجود في اللّغة العربيّة على غير اللغات ولأنه من أصعب الحروف نطقا!
من بين حروف الأبجدية... هناك حرف له هيبة بمجرد تلفظه وضبط مخرجه، حتّى الكلمات التي تبدأ به... القرار، القوة، القدر، القضاء... (جرّب نطقها)

بمناسبة القرار...
عندما تتخذ القرار وتختار السير في طريق ما، لا يهمّ كيف تسير في رحلتك ولا كم تقضي فيها ولا كيف يبدو الطريق لك مفتوحا مُرحّبا أم نفقا مُظلما، ولن يفرق إن دنت مشاعرك من قراراتك ولازمتها كظلّها! لأن لا شيء من هذا سيثبت أنّك اخترت الوجهة الصّحيحة. شيء واحد سيحدّد إن فعلت الصّواب، عندما ينتهي الطريق وتنظر إلى أقرب مرآة وتجد أنّك لا تزال تستطيع النّظر إلى نفسك، لا تزال تحسن التعرف عليك، لا تزال أنت بشكل أو بآخر!... وقتها فقط تستطيع أن تقبل تهاني اجتيازك الطريق.
لا تنس شيئا آخر... "في الوقت الذي تعتقد فيه أنّك من اخترت الطريق يكون الطريق من اختارك وستكتشف لاحقا أنه لم يكن سوى اختبارا لك! "

ماذا عن القوة؟...
هي امتلاك ماذا تحديدا؟ قوة الجسد، النفوذ والمال، الذكاء أم العلم والمعرفة؟
القوة تغيّر الإنسان، تمنع رؤيته لحقيقة نفسه في غالب الأحيان فتنتهي به إمّا لامتلاكها للأبد، أو فقدها لتقتصر قوّته في القدرة على التمثيل باحترافية "أنه بخير" بينه وبين نفسه!
إن كان لا بد من امتلاك قوة فلتكن "السيطرة على النفس" وتوابعها؛ الثقة بالنفس... بالأشخاص... بالأيام... بالأشياء... امتلكنا كلّنا هذه القوة في طفولتنا وبتعاقب الأيام هناك من فقد جزءا منها في حادث ثقة، ومن تخلّى عن بعضها في اختبار ثقة، ومن سُلب قِسما منها في أزمة ثقة! ستختلف النّسب بيننا لكننا جميعنا نعيش ذات الصّراع طوال حياتنا، صراع استعادة الثّقة!
ملحق العدد السابق...

عندما حضر رجال الإطفاء بالأمس كانت ألسنة اللّهب قد التهمت كل ما جاء أمامها من أشياء قيّمة، ذكريات وأسرارا. والغريب أنّه كلّما تهيّأ لهم أنّهم سيطروا على الحريق كان يشتعل من جديد.
تراكضت الغيمات الرصاصيّة حتى تلبدت بهن السماء، وتهاطلت زخات المطر كما لم تفعل من قبل، حاولت شرارات الحريق المقاومة باستماتة ولم تيأس النيران إلا صباح اليوم الموالي؛ حين فرّطت في كل شيء ولم تخلّف سوى الرماد، كما لو أنّها تريد محو كلّ أثر للعائلات السبعة!
تحوّلت البناية إلى هيكل مجوّف واجتاح الحزن المؤقت الجميع بعد ذلك الخروج المهين وسار كلٌّ دربه المختار.

سآخذ استراحة... ليس لأن القصة انتهت ولا لأن سردها أنهكني، كل ما في الأمر أنني أخبرتك بما قد يهمك، ثم من قال أن عيش الحكايات إلى نهايتها إلزاميّ؟ يمكنك وضع نقطة النهاية والبدء بحكاية جديدة متى ما وددت، شرط أن تنهي دور شخصياتك كما يجب، فكيف لي أن أعلن عن نهاية قصة لم تكتمل أحداثها؟

هل سأقوى على غلق أبوابي ونوافذي في وجوههم وأكتفي، ربما سيأتي من ينسيني حكايات اليوم، ربما سأسمح بعد سنوات بأن يمتلكني ويسكنني أناس جُدد غرباء وسأعرف كل شيء عنهم، لا أعلم إن كان هذا المكان سيكتب حكاية جديدة بعد أن أُجبر عنوة على إسدال الستار على حكاية الساكنين به. لكن؛ من يدري؟ قد تكون قصصهم مثيرة أكثر!

لن أعدك بأنني سأخبرك قصتهم... وما شأنك؟ التفت لحياتك، هيّا!

هذا إذا ما لم تتم إزالتي إلى ذلك الوقت؛ في تلك الحالة... اعلم فقط أنني تهاويت بمفردي، كبريائي لن يسمح بأن يهدمني أحد أو يمسس أحجاري العتيقة، وسيكون آخر ما شعرت به أنني سقطت بشموخ بكامل إرادتي!

قد تجد مكاني لكنك لن تجدني كما كنت أبدا، لن تحسن التعرف عليّ، ستسأل المارة عنّي، لن يهتم أحد لترهاتك وستبدو كالأبله. لن يكون قد بقي منّي إلا طيف يلوح في الأفق ليثبت أنني كنت يوما هنا، ولن يبق في الشارع ما يدلّ عليّ من غير اسمه "شارع العائلات السبع"؛ إذا سمحوا بذلك!

*****

إذا اقتنعت بالحكاية واكتفيت يمكنك التوقف!

إذا كان لديك متّسع من الوقت وأردت المواصلة، أصل الحكاية بانتظارك... ستتواصل بإيقاع مختلف.

ربما -أقول ربما- تجد أجوبة وتوضيحات لما لم تفهمه، وربما تتعقّد الحكاية أكثر وتزيد تساؤلاتك؛ لا ضمانات لدّي لأقدمها لك مع أسفي.

لا يحتاج الأمر كلّ هذا التفكير!...

إما تغلق الكتاب الآن أو تقلب الصفحة وتواصل؛ في الحالتين سأشعر بالامتنان؛ لقد تحمّلت شوطا لا بأس به.

إن كانت هذه آخر صفحة لك، كانت فرصة سعيدة أتمنى أن لا تكون الأخيرة !
إن لم تكن، مرحبا بك مجددا، الرواية روايتُك !

الفصل الأخير

...

لعبة لعنة

لن يحدث شيء إذا لعبت وفقا لقواعد اللعبة...

هل تعلم متى تتحوّل اللعبة إلى لعنة؟
عندما تُأخذ على محمل الجد!

ماذا عن اللاعب المحترف؟
هو من يستطيع إنهاء اللعبة متى ما أراد!

قبل أسبوع من رأس السنة ٢٠١٩/١٢/٢٤
(المطار)

.....

" لو كان الولاء للأرض ما ترك النبي مكّة
ولو كان للقبيلة ما قاتل قريش
ولو كان للعائلة ما تبرّأ من أبي لهب
ولكنها العقيدة أغلى من التّراب والدّم "
ـ قس بن ساعدة ـ

كان النهار قد بدأ في نسج خيوط شمسه حين دبّت في المطار الحركة، حشدٌ غفير من المسافرين يجرّون أمتعتهم باتجاه منطقة الصعود إلى الطائرة؛ منهم من استغلوا عطلة رأس السنة؛ ليعودوا إلى ديارهم ويقضوا المناسبة مع عائلاتهم، ومنهم من اتخذوا من نهاية السنة ذريعة لإحيائها في جوّ سياحي استجمامي بهيج؛ لاستقبال العام الجديد بمعنويات عالية.
وسط تلك الأجواء... كان "جواد" وسارة" و"ياسر" استثناءً من هذه الفرضيات!

على مقاعد الانتظار في المطار، كانت "سارة" جالسة تتأمل الخاتم الرّفيع النّاعم؛ الذي طوّق بنصر يدها اليسرى معجبة ببساطته. طال انتظارها فراحت تعبث بملفات الجهاز اللوحي، صادفها التسجيل الصوتي فقرّرت سماعه لآخر مرة:
(...

- هل بدأتِ التسجيل؟
- نعم.
- بماذا تريدينني أن أبدأ؟
- من أنت وماذا تفعل هنا؟ ثم... ماذا تعرف عن المكان؟
- من أنا؟... لا يهم! يمكنك اعتباري مالك العمارة أو وريثها، لكنني أعتبر نفسي أمينا عليها لا أكثر، هذه ليست مجرّد بناية آيلة للسقوط في أي وقت كما يعتقد كثيرون؛ إنّها ذاكرة ممتدة من حياة عائلات وحكايات بيوت استضافتهم، ولأن المشاعر الحقيقية عندما تسكن مكانا لا تتركه قرّرت أن أكون حارسا عليها.
- كم مضى على نشأتها؟
- بُنيت ووُثّقت منذ مائة عام تقريبا، عندما تتمم البناية مائة عام يُفترض أن تُدرج ضمن ممتلكات هيئة الثقافة والآثار؛ لكونها عمرانا تراثيّا ولن يكون لأحد الحق فيها.
- وأنت بالطبع لا تودّ ذلك!

- على العكس تماما، لا تهمّني الجهة التي ستمتلكها، أريدها أن تبقى على حالها فقط أو تتحوّل إلى متحف أو معرض فنون أو مجرد مكان يدخله عابرون، يتجولون فيه قليلا، يلتقطون صورا ويرحلون، أو يراه البعض وتتناقل عنه الحكايات والأساطير بكونه مهجورا أو ملعونا أو مسكونا حتى... المهم أن يبقى كي لا تموت حكاياته وتعيش فيه للأبد.
- هل أنت جادّ؟ أ لا تريد شيئا لنفسك؟
- نعم! ليس لدي أدنى اعتراض فيما إذا حجزت عليه الدولة بالكامل. بهذه الطريقة سأرتاح أيضا من المساومات التي تُعرض عليّ كل يوم لبيعه، سيكون البيت تحت الوصاية العامة!

تلقّيتُ عروضا لا يمكن لعاقل رفضها؛ لأسمح بإزالة البناية وهدمها لتستغلّ مساحتها وموقعها في مشروع استثماري يدرّ أموالا دون انقطاع، أو برجا عاليا يدفع فيه مُلاكه كلّ ما يحتكمون عليه، ثم يحوّلونه لنزل ليليّ بعد عملهم طول النهار؛ لدفع ما بقي عليهم من أقساط.

إذا أُزيل لن يتضرّر أحد... مدرك لهذا! كل ما في الأمر أنّ مكانا يعج بالذكريات والمعاني سيفنى، وستموت أرواح ساكنيه التي لا زالت تتنفس على تلك الذكريات. أحيانا يبدو لي اعتقادي هذا سخيفا وأنوي أن أودّع المكان لآخر مرة حين لا أجد تفسيرا لتعلّقي به، لكن شيئا ما يحدث... طاقة غريبة تجذبني.

- لا أريدك أن تتأمل في مقالتي كثيرا! لست رئيسة تحرير المجلة ولم أصر بعد صحفية بما تحمله الكلمة من معنى، أنا فتاة تبعت حدسها وجاءت لتجرب حظّها وتكتب تقريرا عن شيء؛ ربما لن يعني شيئا للكثيرين.
- والمعنى؟
- أعني أنّ أقصى ما يمكن أن يحدث هو أن ينشر الكلام كما هو دون حذف أو إضافة أو تعديل... سأسألك سؤالا غير لطيف نوعا ما؛ هل يمكن أن تتنازل عن هذه البناية يوما ما؟ أقصد... أن تسمح بإزالتها؟

- لا أمتلك المكان في الأساس كي أتنازل عنه، ثم أنّ هذا وارد طبعا، لكن كما قلتُ في السابق سيكون عزائي الأخير؛ أن لا تموت حكاياته على الأقل، وسأسعى لتخليد الشارع باسم العائلات التي سكنت البناية فيما مضى.
- كيف ذلك؟
- لو كان شارعا فرعيا لكانت المسألة يسيرة، فتسمية شارع كهذا بهذا النوع من الأسماء يتطلب إعداد ملف ضخم وإحالته إلى ديوان التهيئة العقارية للمصادقة والموافقة؛ شرط ذكر أسباب التسمية، ولا بد أيضا أن يستوفي الاسم مواصفات خاصة منها أن ينتمي إلى بيئة وتاريخ وجغرافيا المدينة بأكملها، وأن تكون العائلة بارزة في فترة إعمار المنطقة ومعروفة ومألوفة لدى عامة السكان، والأهم أن تكون لها دلالة على هوية الشارع ويستحسن تفادي الأسماء التي لا زالت على قيد الحياة وباعتبار هذا الشرط تعجيزيا سأكتفي بطلب عنونته "شارع العائلات السبع"
...)

ثم مسحتْ التسجيل فور انتهائه!

٢٠١٩/١٢/٢٤
(شخص آخر في منزل آخر)

.....

" أدفأ فكرة اخترعها الانسان حتى الآن هي فكرة البيت.
أحبُّ البيت؛ أحبُّ فكرة البيت نفسها والأربع جدران والباب المنغلق، مهما كان الخارج ممتعا وشيّقا، لا شيء يساوي الشعور بالطمأنينة داخل حدودك، حتى لو كنت وحيدا أو مريضا أو حزينا؛ البيت يعطيك مساحتك وشيئا من الكرامة في ممارسة أي شعور تريد! أحب فكرة البيت التي لا تتركك خارجا مع مخاوفك؛ كغريب أمام منزل لا يدخله. أحب البيت لأن البيت دائما يعود لأهله، ونحن دائما نعود للبيت مهما ذهبنا... إلى أين نحن ذاهبون؟ دائما إلى البيت! "

-أحمد خالد توفيق-

استيقظ مبكرا ليغتنم اليوم من أوّله ويبدأ بترتيب منزله الجديد، لا يزال غير مصدق أنّه أخيرا صار من ملّاك العقارات، صحيح أنّ البيت صغير وغير مرتّب حاليا لكنّه يرى نفسه محظوظا لأول مرة... لقد كانت صاحبة الشقة مستعجلة، طرأ لها سفر مفاجئ للخارج على حين غرّة فعرضت شقتها للبيع بأثاثها وأجهزتها بسعر معقول جدا، خاصّة أنه استغلّ درجة القرابة بينهما فراعته في الثّمن المعروض، لتتحوّل الشقة دون سابق انذار إلى تلال من الصناديق؛ تنتظر أن تُفرَّغ ليأخذ ما فيها من أغراض مكانه الجديد المحجوز بالبيت.

فتح الشاب ذو القامة الطويلة والملامح السمراء الثلاجة؛ بحثا عن شيء يسدّ رمقه فوجدها خالية، حاول تشغيل ماكينة إعداد القهوة لكنه لم يجد البن، قلّب في خزانة المُؤن ثم تدارك نفسه قائلا:

- عمّا أبحث أنا؟ منطقي أنّ لا أحد يترك أكلا عندما يبيع بيته!

ارتدى سترة رياضية بعد أن دسّ في جيبها الخارجي علبة سجائر واستعد للخروج ليُحضر ما يلزمه.
عند خروجه انتبه لوجود شيء في صندوق الرسائل البريدية، فتحه ليخرج الظرف وقال مغتاظا:

- فاتورة من أول يوم! لم نتّفق على هذا.

أمسك الرسالة بكلتي يديه وراح يتفحص جانبيها، لم تحمل طابعا ولا عنوانا للمرسل أو المرسل اليه حتى يستدّل على أيّ منهما، كُتب عليها فقط بخط سميك: **"راوي الحكاية"**.
استند على صندوق من الصناديق الكثيرة التي ملأت البيت، تأمّلها باستغراب وقال بلهجة ساخرة:

- هل يزال هناك شخص يبعث رسائل ورقيّة في هذه الألفيّة؟

ثم أن الظرف كان كبيرا! لاحظ أنه ثقيل بعض الشيء مقارنة مع خفة الورق المعتاد، فقرر أن يفتح الرسالة ويقرأ ما فيها:

...الرسالة (٢٠)...

هذه الرسالة ليست للنشر على عكس الرسائل الأخرى. لم أستطع تحديد رقم هذه الرسالة، استغنيت عن العد. لكنها آخر خطاباتي بالتأكيد وأطولهم ربما! اعتبريها رسالة شكر وعرفان. الحق يقال؛ لقد أعدت كتابتها أكثر من ثلاث مرات لأجعلها تعبّر عما أردت قوله بالضبط، أرجو أن أكون قد وُفقت في ذلك على نحو ما!
بالمناسبة، كتابة الرسائل أمر غريب نوعا ما، خاصة عندما تكون لشخص لا تعرفه، لكنه شيء يُشعر بالجديّة والرّسمية... أنصحكِ بالمحاولة؛ حتى لو كنتِ أنتِ المرسل والمستقبل.

أعرف مقدار التّساؤلات التّي يطالبكِ عقلك بها مع كل رسالة -خاصة بالنسبة لشخصية فضولية مثلكِ-
لا أنكر أنّ لكِ فضلا كبيرا في أن تُسمع حكايتي وأتحوّل من مجرد صاحب ملك عقاري إلى راوي حكاية، حكاية كنت أحكيها لنفسي بعد أن حكاها كل ركن في البيت لي، وكتبتها كي لا أنسى.
أحيانا يُكتب الفصل الأخير من حكاية قبل البدايات وأحيانا لا تحتاج حكاية لفصل أخير... هل سبق لك أن سمعت بقصة مفهومة كاملة رغم أن نهايتها لم تُكتب ولم تُعاش؟ لقد كانت هذه إحداها.
يا لسخرية القدر! أتيتِ أوّل مرّة واقتحمتِ حدود بيتي طلبا في المساعدة وفي النّهاية أنتِ من ساعدتني؛ هل تتذكّرين؟... -أغلب الظّن "لا"-

- ممنوع التّصوير يا آنسة! هل لديك تصريح بذلك؟

لم تجِدي وقتها الحاجة إلى المبررات والمقدمات لاستهلال الحديث، فقلتِ بتلقائية:

- لو سمحت! متى ستُهدم العمارة؟... هناك قرار بإزالة عمارات مشابهة في المقاطعة، هل القرار شمل هذا المكان؟
- لا يمكنني أن أفيدك بشيء، اسألي الجهات المعنية!

- ألا تقيم هنا؟ من المؤكد أنّ لديك فكرة.
- لا أعتقد؛ يمكنك الذهاب... لا تضيّعي وقتكِ!
- بالمناسبة... أنا صحفيّة وجئت لإعداد تقرير عن المكان.
- و ليكن!

كنتُ قد كوّنتُ عنكِ فكرة مبدئية أن فيك من الاصرار والحماس الذي يصعب كبح جماحه بسهولة، لكنك فاجأتني بجانب آخر هو تسرعك واندفاعك حين اصطنعت الثقة قائلة:

- فهمت... هل تريد مبلغا رمزيا كي تتعاون معي أم تريد أن أذكر اسمك في المقال؟
- انتهاك خصوصية المكان ومحاولة اقناع فاشلة! إعلامية بطيئة في التقاط الصور ولا تحمل آلة تصوير حتى... ثم أنني لست حارسا على العمارة!

و انطلقتِ بعدها دون توقف، بنبرة تارة تستعطف وتارة تهدّد وتارة تتذمّر:

- حاولت أن أعطيك مقابلا نظير خدمة. هل أزعجتك فكرة أن تقوم بشيء بمقابل... حسنا! ساعدني لوجه الله.

ثم أنني لست اعلاميّة... أقصد أن هذا ممكن مستقبلا، لست من المدينة أساسا ولا أزال تحت التّدريب في هذا المجال، اعتبرني مجرد مصدر اخباري! لاحظ أنك تضيّع عليّ فرصة السّبق... أ لا يمكنك مراعاة متاعب مهنة كهذه؟ لن تخسر شيئا؟ تذكّر أنك كنت عقبة في مشوار شخص طموح!
كيف لك أن تفهم فأنت لا تعلم ماذا فعلت لآتي إلى هنا؛
لقد أقنعتُ فريق العمل معي أنّ العمارة ملعونة مُستندة ببعض الأخبار القديمة لقصص مشابهة حتى يتركوا الخبر لي، وادّعيت أن والدتي مريضة كي لا أذهب للعمل اليوم، ووالداي يظنّان أنني أحضر حفلة تخرّج لأقرب صديقة لي، في حين أنني استعرت سيارة صديقتي تلك لأستطيع قطع كل هذه المسافة بحجة أن أخي ترك المنزل وذهب الى المصيف العائلي لإحضاره و...

- يكفي! بعد كل ما قلته، لا يمكنني أن أثق أنّك صحفية من الأساس! لكنّك تصلحين لتكوني مراسلة أو مذيعة بهذا الأداء.

وأضفتُ اختصارا للجدال:
- واضح أن توسّلاتك لن تتوقف، التقطي بعض الصّور وغادري في صمت!
فاستوقفتني قبل أن أغادر:
- لحظة! على الأقل افتح لي البوابة كي أستطيع أخذ صور أحسن.
- وكأنّ ذلك سيحدث فرقا... تفضّلي!

رفعتِ حاجبك في استياء قائلة:
- فهمت تلميحك، أعترف أنني لا أجيد سوى التقاط صور "السّيلفي" لكنني قطعت عهدا على نفسي لو وُفّقت في نشر المقال وأخذت المكافئة، فإن أول ما سأقوم به هو التسجيل في دورة لاكتساب مهارات التصوير.

بغضّ النظر عن لهجات الوداعة والشراسة التي تناوبت على نبرتك بين رد وآخر، لمحت نشوة الانتصار في عينيك وأنت تخترقين بوابة بنايتي فقاطعت حماسك:
- سأسألك بضعة أسئلة... وفقا لإجاباتك سأحدد إن كنت سأساعدك أم لا.
- تفضّل! ليس أمامي خيار آخر.

ما لا تعلمينه أنني كنتُ قد قرّرتُ مساعدتك ولم تكن إجاباتك ستغيّر شيئا، لا علاقة لإلحاحك وعنادك بالأمر، كنت قد أمضيتُ فترة لا بأس بها لم أجالس انسانا أو أتبادل أطراف الحديث مع شيء سوى الأوراق المهترئة، فكانت فرصة بالنسبة لي لأفصح عمّا يجول بخاطري وأجد من يتجاوب معي، ولو أنه لم يكن بالحديث الصّميمي البتة؛

- لماذا اخترت مزاولة الصحافة؟ لماذا هذا الموضوع بالذات؟ وهل تهمّك معرفة حقيقة حكاية بتفاصيلها أم مجرد معلومات قابلة للقراءة والكتابة؟

أجبتِ دون تفكير لكنك بدوت كمن ينتقي كلماته بعناية شديدة:
- حسنا... لم أطمح يوما لأكون صحفية أو مذيعة، لقد كان مجال الإعلام أمنية قريبة لي في شبابها؛ لم تستطع تحقيقها، عندما علمت لم يكن لدي بعد حلم

أطمح لتحقيقه، لذلك فكّرت في تحقيق حلمها مع أنّها لم تطلب منّي ذلك، فلنقل أنها كانت من الأشخاص الذين تتعرف عليهم أكثر بعد أن يفارقوا الحياة. وفعلا تخصصت في هذا المجال وأحببت شيئا فشيئا فكرة إيصال صوت الناس وأفكارهم، لم أرغب في أن تكون الحوادث والكوارث مصدر رزق لي، ولم أكن أيضا من هواة الفن والرياضة والسياسة مثلما اتجه أغلب زملائي؛ لذلك كانت السلالم الأولى لمشواري المهني عالية بعض الشيء، كانت أغلب مواضيعي عن قصص قديمة غريبة...
لِم هذا الموضوع بالذات؟! منذ فترة وأنا أبحث في الانترنت عن قصص مشابهة لأساطير قصور قديمة مهجورة، وحينما عرض علينا رئيس التحرير العمل على الخبر؛ كنت السّباقة وفعلت المستحيل لأكون هنا قبل الجميع، مع أنّ لا أحد غيري اهتم!
ثالث إجابة؛ لو لم أكن أبحث عن الحقيقة لما أتيت إلى هنا، محرك البحث كان حتما سيقدّم لي صورة للعمارة أجمل بكثير من تلك التي التقطتها، ولكنتُ وفّرت على نفسي عناء الطريق وجلست خلف مكتبي؛ أسترسلُ مجموعة أفكار مثيرة من وحي خيالي كانت ستجذب القراء أكثر. أودّ سماع الحكاية وتفاصيل تفاصيلها أيضا، ليس لأجل المقال بقدر ما هو إرضاء لحب استطلاعي.
أ لا يكفي كل ما قلته؟

- حسنا... استعملي هاتفك للتسجيل مثلما يفعلون؛ لأنني لن أعيد ما سأقوله ثانية!

(بإمكانك إرفاق التسجيل الصوتي للرسالة، لقد أعدت سرد ما مضى رغم أنك طرف فيه لتكون وجهة رؤيتي واضحة لكِ، لكنني لن أكرر حوارك الصّحفي معي ما دام معك، أظن أنك لا تزالين تحتفظين به)

لم نتبادل أسئلة التعارف المعتادة بين غريبين، كنتُ أجيبك غير آبه بانطباعك عني؛ اعتقادا مني أنه لقاء عابر بشخص لن أقابله مرة أخرى، وكان اعتقادي في محلّه.

في البداية اعتقدتُ أنك تسايرين الحديث لأخذ المعلومات التي جئت لأجلها وستغادرين، أعتذر إن شككت في قدراتك كصحفية، لكن بمجرد انتهاء الحديث وأخذه منحى آخر؛ أيقنتُ كم أنك موهوبة في انتقاء أسئلتك واستدراج المتحدث إليك ليبوح بقناعاته وفلسفته في الحياة؛

- خذ الهاتف والتقط صورا للمكان على ذوقك. ما دمت انتقدت تصويري قبل قليل فلا بد أن لك خبرة نوعا ما.
- ليس بشيء يستدعي كلّ هذه النباهة، أنا في الأساس مصور فوتوغرافي!
- هو مجال عملك إذن؟
- فلنقل أنه مجال دراستي لأنني لا أراه عملا. المهنة شيء أقرب إلى الواجب والإلزام أكثر من الرغبة والشغف، أن تقوم يوميا لمزاولة نشاط كي تتلقى نظيره راتبا في نهاية الشهر هي مسألة لا علاقة لها بحبك لعملك، في الأمر شبه إجبار، لا علاقة لإرادتك من عدمها!

أمّا إذا كان مفهوم العمل غير مقترن بأجر مادي؛ يمكنك القول "نعم" إنه مجال عملي، أظنّ أن قيام أحد بعمل يحبّه كافٍ لدرجة أنه لن يجد حاجة لأخذ مقابل عنه. أ لا تجدين أن فكرة تقاضي المال عن عمل تحبينه وتريدينه أساسا فكرة غريبة محيّرة؟ المال تعويض مادي عن قيم معنويّة. لكنّك في هذه الحالة لم تفقدي شيئا كي تستحقي المقابل والتعويض.

- و كيف سيعيش من يعمل بمبدئك هذا؟ من حب العمل والتفاني فيه؟
- غالبيّة البشر -كي لا أقول كلهم- يعملون للحصول على المال فقط، ما المال؟ حلقة من نفس السلسلة التي قيّد بها الانسان نفسه، سلسلة اختلاق المشاكل والعيش دهرا يلعنها ويحاول حلها، كائن متفرّغ!

أجبتِ بتلقائية:

- لم أفهم!
- نفس مبدأ الفكرة الأولى "البحث عن مقابل"! رغبة الانسان في العطاء بمقابل؛ ولّد فكرة المقايضة قديما، وخشيته من احتمال أن لا تكون هذه المقايضة عادلة وفي صالح كلا الطرفين؛ جعله يبتدع مجموعة قطع معدنية أو ورقية سمّاها مالا، جعلها مفتاحا لأبواب الحياة وسمح لها بالتحكم فيه،

لكنها أفقدت أغلب الأشياء قيمتها حين اختصرتها بتسعيرة وخلقت فجوة يصعب سدّها بين الأشخاص وأبسط رغباتهم.

- والحل برأيك؟ نتخلى عن المال!
- لقد فات أوان ذلك؛ كسب المال لم يعد وسيلة للعيش كما يدّعي أغلبنا، هو هدف في الأساس؛ ملأ الجيوب، حافظات النقود، الأرصدة في البنوك... شكل من أشكال التأمين الذي لا معنى له. لا أقصد المال بشكل خاص، ترعبني فكرة أن تتحول أيّ وسيلة إلى غاية.
- فهمت... لكن الانسان يضطر، وأحيانا تكون الوسيلة أهم من الغاية!
- مضطر؟ كلمة يجب أن تُحذف من قاموس الانسان أو يعاد النظر ويعدّل معناها، لأنها لا تعني أنك تختار شيئا بإرادتك وتكون مُجبرا عليه. لا يجوز جمع الارادة والاختيار مع الاضطرار! كفى الانسان تذّرعا بهذه الكلمة كلّما ضعُف أمام نفسه.
- منطقي ما قلته، سأحاول التفكير فيه. بالمناسبة، كيف استطعت أن تعيش هنا في مكان مهجور وبمفردك؟

كنتِ بارعة في كسر الحواجز مع الغرباء، ورغم حرصي الدائم على إبقاء مسافات أمان بين من تجمعني بهم معرفة سطحية، رحتُ أحدّثك دون أن أُبدي أيّ تحفظ:

- أعيش؟ أنا في عطلة من الحياة حاليا... أخذت اجازة مفتوحة. أنصحك بها أيضا!

جرّبي أن تأخذي استراحة من الحياة لمدة أسبوع فقط؛ أسبوع لا تفكرين فيه بشيء، تقومين بشيء واحد تحبينه في أكثر مكان تحبينه وبمفردك، دون أن تخضعي لقوانين دوران الأرض وتحكّمات البشر، دون أن تتقيدي بوقت أو شروط. ليس لهدف بعينه؛ فقط ليتسنّى لك سماع صوت روحك بعيدا عن صخب الحياة ونشاز الآخرين. كثيرا ما نحتاج أن نريح تفكيرنا ولو قليلا بالتفكير في اللاشيء!

على الأغلب لم تجدي وقتها ردا بعيدا من أن يبدو مبتذلا، فاكتفيت بالإصغاء إلى ما أقوله باهتمام واستغراب واضح جدا، وللأمانة لم يفرق معي ذاك كثيرا في بادئ الأمر؛ فواصلت كلامي:

- لا حاجة لكِ في أن أعدّ كم سنة تضيع من عمرنا بين أكل ونوم وعمل دون إضافة القلق واليأس والانتظار لهذه المعادلة، لأنها ضريبة عيش تلازمنا عمرنا كله. من المؤكد أنك صادفت هذه العملية الحسابية في مكان ما، أسبوع إضافي لهذه الخسارة لن يضر لكنه سيفرق معك كثيرا.

كنتُ أريد التحدث في أي شيء يومها، ربما لأن محادثاتي اقتصرت في تلك الآونة على مخاطبة الأوراق والجدران، وكنتِ تحدقين فيّ وفي المكان بنظرة من طراز؛ ماذا أفعل هنا مع هذا الكائن البشري، لا أعلم إن كنت شخصا يجيد قراءة حديث المقل، خُيّل إليّ بعد لحظات أنه لم يبق سوى أن تأخذي دفتر ملاحظاتك، وتدوّني معلومات عنّي تروينها لمعارفك لاحقا، لم أستطع التغاضي أيضا عن نظرات التقييم التي رمقتني بها من وقت لآخر، فاستثار ذلك غضبي وقلتُ دون مقدمات:

- قبل كل شيء؛ أضيفي لمعلوماتك التي تحاولين جمعها عني استنادا على ضوابط يراها عقلك منطقية، أنا شخص يمقت محاولة حكم الناس عليه وتحليله وتفسير كلامه...

أعترف أنّني كنت سخيفا معك كما يجب، وفظًا كذلك لكنّك استأذنتِ للذهاب قبل أن أتدارك الموقف:

- في الحقيقة هناك فكرة واحدة فقط كوّنتها عنك... أنّك انسان غير طبيعي، لا يتراود إلى ذهني سوى احتمالين حاليا؛ إمّا أنك شخص اختلت موازينه لكثرة بقائه بمفرده أو شبح لأحد ساكني البناية لا وجود له يتهيأ لي فقط. وفي الحالتين عليّ الرحيل الآن!

وقبل أن تغادري سألت:

- لم تقولي ما اسمك حتى أنتظر مقالك ولا في أي جريدة تعملين؟

- مجلة "نور" الشّهرية؛ لكنني لست متأكدة أنهم سينشرون المقال باسمي من أول مرة، لذلك إذا وجدت المقال أساسا ووجدت أسفله اسما كاملا طويلا عريضا فاعلم أنه ليس لي، أمّا إذا كان مُوقّعا باسم مختصر بحرفين أولهما "جيم" فهذه أنا. في كل الأحوال سيكون العنوان: "بيوت تنادي أهلها"
- حسنا!

وغادرتِ حاملة معك جواب أسئلتك التي قدمت لأجلها، وأسئلة جديدة محيرة وبعض الإصرار على تحليل شخصيتي. لا أعلم لِم كنتُ على يقين أنّنا سنتقابل لمرة واحدة فقط، هي تلك المرّة... وكان يقيني في محله بعد ذلك!
أراهنك أنّك عدت مجدّدا بعد نشرك مقالك الأول عن العمارة ولم تجديني طبعا. كنت قد تركت المكان،
لا أنكر أنّ موضوعك أحدث ضجة صغيرة، لكن هناك من أساء فهم ما كتبتِه وعوض أن يدعم فكرة إضافة ملكية البناية لقائمة آثار الدولة، تضاعفت العروض لشراء هذا المنزل المشهور وكأنّكِ كتبت المقال في صفحة الإعلانات العقارية، فعقدوا مزادا بينهم عليه؛ كل يريد أن يتباهى بامتلاكه... بالمناسبة هناك صحفيون ومراسلون كثر توافدوا عليّ بعد نشر خبرك!
لم أستطع تحمّل حماقة البشر أكثر، فأحكمت قِفل بوابة العمارة وغادرتها. في كل الأحوال لن يحسن أحد التصرف فيها ما دام صاحبها غير موجود.

بعد قراءة مقالك اكتشفت أنك كنتِ مستمعة جيدة، لكني لم أكن بحاجة في المرات التي تليها سوى لقارئ متمكّن، لا يشترط فيه حتّى أن يكون نهما. من هنا راودتني فكرة أن أرسل لكِ الحكاية على شكل أجزاء عبر رسائل بريدية؛ لتنشريها في مجلتكم مثلما فعلت مع المقال. وبالفعل... لقد أدّيت المهمة كما يجب.
هكذا بدأتُ سرد الأحداث بكل التفاصيل التي حدثت والتي لم تحدث، تردّدتُ في بادئ الأمر فقد بدا لي ذلك صعب التنفيذ. مهما أخبرتكِ لا يمكنكِ تصوّر مدى عبء أن يمسك أحدهم قلما جافا والكثير من الورق ويخطّ به ما مضى عن أشخاص حقيقيّين، حتى ولو لم ينل شرف معرفتهم حق المعرفة، لكنهم

وُجدوا في الأساس... مرّوا من هنا! ثم ارتأيت أن الأمر يستدعي المحاولة حتى ولو على سبيل المتعة، واقتصرت يومياتي على تتبع أطيافهم من شقة إلى أخرى، بدأت برصف ما أعرفه من أحداث قديمة سمعتها في شرائط تسجيل صوتيّ -كانت قد تُركت لي- على لسان جدّتي، ثمّ ملأت فجواتها بأحداث وقف فيها خيالي إلى جانبي، وأبقيت الحقائق تطفو على السطح. لو لاحظتِ رغم أن القصة في زمن قديم إلا أنني جعلت أحداثها تحاكي الحاضر في بعض التفاصيل.

لم يكن عنوانك صعب ايجاده! سأعترف لك، لقد شككت في أمرك يومها... كنتِ مُريبة جدا! فلحقت بك... توجّهتِ أولا إلى بيتك ومن هنا عرفت العنوان لأراسلك كل مرّة، ثم إلى مقر المجلة وكان اسمها "نور" كما قلت بالضبط.

لا أخفيك سرا أن هذا لم يكن كافيا لأثق بكِ، لكنني قررت أن أجرّب حظي وبعثت بأول رسالة. تذكّرتُ حجتك لزملائك في العمل بتسليطك لعنة مزيّفة على المكان لمنعهم من القدوم، واستقرّت ببالي الفكرة. كنت قد صادف وقرأت أنّ أصل لعنة القصص يرجع إلى أوروبا الشرقية، ما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر، حيث كان الغجر يلقون بلعناتهم في قصة بهدف معاقبة أعدائهم ومن ثم يقطعون ألسنتهم كي لا يتمكنوا من رواية القصة مجددا، فقد كان يُزعم أن القصة المصابة تؤدي بالضحية إلى تحمّل حظ سيء يتبعها إلى أن يوافيها الموت المحقق، ولا يبطل مفعوله إلا وفقط إذا تمكّنت الضحية من تمرير القصة بشكل ما إلى شخص آخر، أمّا إذا كُشفت تفاصيل معينة مطلوبة في القصة فإن اللّعنة تُرفع.

هذا لا يعني أن الحكاية مؤلّفة وغير حقيقية!... كل ما في الأمر أنّني لا أؤمن بوجود اللّعنات ولا أعرف إن كان ما رويته ينطبق على هذا السّياق، من يدري؟ ربما كنت أنا صاحب الحظ السيئ في هذه القصة، الضحية الذي طاردته ذات اللعنة التي كانت تصيب كل من يصبح مالكا للبناية، وربما أيضا تحرّرتُ من قيد المكان عندما تمكّنت من تمرير الحكاية وكشف تفاصيلها للعلن، وربما كان هذا مجرد هراء... وهمٌ لا أكثر، ولو كان وجود اللعنات

حتمية لا مناص منها؛ فإنّ اللّعنة الوحيدة التي قد تطاردنا هي قراراتنا واختياراتنا!
لا أعلم إن تسلّل اليك هذا الوهم مثل البقية، فقد كنت بالمرصاد لردود أفعال الناس على مواقع التواصل الاجتماعي في الأيام التي تفصل مقالا عن آخر، ونجحت بمساعدتك في تخليد الشارع باسم "العائلات السبع" بعد أن صارت حكايتهم معروفة.

هل تذكرين حديثي عن الغاية والوسيلة، أريد إضافة شيء جديد عايشته؛ الأهداف والغايات قابلة للتعديل والتغيير، ليست حكرا علينا ولسنا مجبرين لتحقيقها كما هي، لقد اكتشفتُ أن الهدف الذي نقاتل ونستميت لأجله ما هو إلا وسيلة لهدف آخر وغاية أخرى كي تستمر الحياة!
لقد تغيّرت غايتي يا "جيم"، لم يعد هدفي تحصين العمارة وحمايتها، شيئا فشيئا ومقالا يليه مقال؛ أحببت فكرة إيصال الحكاية وتعلّق الناس بها، كنت أكتب طول الوقت لتقرئي فتنشري فيقرأ آخرون.
لم أكن صادقا مع نفسي عندما قلت أنّني أخذت اجازة مفتوحة من الحياة؛ وأنني تخليت عن التفكير في الأشياء، فقد كانت مسألة البناية تشغل كل تفكيري، أدركتُ أنني كنت أخادع نفسي؛ لذلك أريد حقا أن أتحرّر هذه المرة، وكأنني كنت حبيس العمارة وحكايتها وتحررت عندما سمع بالحكاية غيري!
ستندهشين لو عرفت أنني لم أعش يوما من حياتي فيها، كنت زائرا للشقق لا أكثر... لكنني عشت في كل بيت منه عندما كنت أسرد، كنت آتٍ وأقضِ الوقت بالساعات في البيوت، فما كتبته سمعته فعلا، خصوصا شقة جدي وجدتي؛ "عزيز وحياة" –كما ورد في القصة- لقد كنت شاهدا من خلالها على عمق نادر الوجود بين اثنين.

بالمناسبة، الأسماء التي ذُكرت في أجزاء الحكاية كانت مستعارة. تراود إلى ذهني للتو أنني لم أخبرك باسمي، لكنني لا أظن أن الإفصاح عنه لكِ الآن سيضيف شيئا جديدا.

تحسبا لعدم فهمك رابط الشخصيات وعلاقاتهم ببعضهم؛ تركت في آخر ورقة من خطابي الشجرة العائلية للسبع عائلات.

اكتشفتُ أنني أشبه أفراد العائلة إلى حد ما، أجدني أحيانا مثل "فيصل"؛ ذاك الذي كانت فكرة أن يخرج من باب منزله أعظم إنجاز يمكن أن يحققه، ومن المحتمل أن يمر عليه يوم كامل دون أن ينطق بكلمة، وأحيانا مثل "ماجد"؛ شخص يحمي عواطفه بحرص شديد، كل مشاعره خلف عينيه؛ تلك هي المساحة المسموح لها بالبوح عنده ولا يمكنه تجاوزها قيد أنملة. وأحيانا أخرى شبيه "أسعد"؛ أعيش ما أشعر به دون استعراضه أمام الملأ. ولِم لا يكون حالي حال "صفية" أيضا... الطرف المنبوذ في العائلة؛ الذي لم يهتم أحد من أفراده أن يعرفه، وهو لم يكن هو تواقا لذلك. ربما لهذه الأسباب كتبت عنهم وأبَحتُ لنفسي شرعية نشر ذلك، وربما لرغبة دفينة مني في تشريح أدوارهم وتقمصها؛ للنظر بيُسر إلى ما وراء قناعاتهم وتصرفاتهم تلك، لأجدها في النهاية لا بالقبح المتوقع ولا بالمثالية المزعومة. أستغرب نفسي أحيانا كيف استطعتُ استشفاف حياتهم مع أنني لم أختلط بهم؛ خاصة وأنّ لعبة قلب الأدوار ومعايشة نفس مواقف الآخرين مجهدة للرّوح والأعصاب، ولا أحد يملك سعة الخاطر ليُقْدم على ذلك، فالأغلبية تختصر على نفسها العناء وتستبيح الاقتناع أن تفكيرنا واحد، وردّ فعلنا واحد، وتتعامل على هذا الأساس!

نصيحتي الأولى والأخيرة لكِ؛ لا تجعلي أبدا سببا واحدا لحياتك ولا تستنزفي عمرك في السعي خلف شيء واحد، فكّري بكل شيء أو لا تفكّري بشيء إطلاقا! اجعلي لنفسك أكثر من سبب لقيامك بالشيء نفسه؛ حتى إذا بطُل أحد الأسباب سدّت البقية! ذلك لأن الأشياء التي أحببناها ورغبنا فيها؛ تتحوّل بمرور الوقت إلى أعباء لا نستطيع التخلص منها ولا التخلي عنها؛ مقيّدين بشغفنا الأول بها، بحكم أننا حبّبناها في نظرنا حتى اقتنعنا بها. عندما يكون حبّنا لها في طريقه الى الزوال؛ فلنتركها قبل أن تفقد متعتها ويتحول قيامنا بها إلى تأدية واجب لا أكثر!

لهذا السبب تركتُ المنزل وشأنه فدوري فيه انتهى، لن أتتبّع مزيدا من الأخبار عنه، ولو سمعت من يتحدث عنه ويحكي حكايته؛ سأصغي كما لو أنّني أتعرف عليه للمرة الأولى، كأنني قارئ عابر صادف القصة أثناء تصفحه مجلتكم، فشدّته وقرر أن يقرأها حتى النهاية، ثم عاد إلى حياته بمجرد إغلاقه الصحيفة. قررتُ ذلك عندما لاحظتُ كيف أنّ الأيام تتعاقب عليّ عبثا؛ صار كل صباح حربا مُضنية بالنسبة لي، حربٌ أنا فيها جندي مجبرٌ على أن لا يفارق جبهة؛ لا يذكر أنها فُرضت عليه، ليواجه أطرافا لا تجمعه بهم صلة كي يجمعهم نزاع.

سأرحل إلى مكان لا أعرف فيه أحدا ولا أحد يعرفني، لا أعلم إن كنت سأعود أم لا... كل ما أعلمه أنّني لن أكون بخير هنا أبدا، تنتظرني رحلة علاج طويلة لأجد نفسي وأجد جدوى وجودها. لربما أنجح في ذلك إذا تخلصت من رواسب ذكريات شوهت ملامحي؛ حتى لم أعد أعرفني، عساني أتعافى أيضا من داء عدم الاكتراث بالحياة الذي أصابني في سن مبكر.
لم أحدّد وجهتي بعد، ولا أظنّني سأحسمها، سينتهي بي المطاف حتما إلى لفّ مجسم الكرة الأرضية بعبث وإيقاف دورانها بإصبعي عشوائيا مغمض العينين، وسأمضي خلف حدسي كما جرت العادة دوما. وبرهان صدق كلامي ونيّتي الخالصة موجود في الظرف... تركتُ لكِ مفتاح البناية!

شكرا لأنكِ حرصت على نشر رسائلي كما هي، راقت لي فكرة إضافة مقدمة تتناسب مع يوم النشر وتمهّد لأحداث كلّ الجزئية! للأمانة، انتظرتُ اليوم الذي يُكتب فيه اسمك الكامل الطويل العريض كما كنت تحلمين أسفل المقال، لكن برغم النجاح والإقبال على منشورك بالمجلة كل شهر، وعلى مدار الأجزاء الكاملة احتفظت المقالات بالحروف الأولى المختصرة "ج. م"!
وصلنا للنهاية على ما أعتقد، كان بودّي لو أخبرك بالأكثر فلا أعتقد أن رسائلي كانت كافية لاحتواء ما أريد إخبار الناس به. لكنّ الحكاية لن تنتهي على كل حال؛ هناك شخصيات كثيرة انحدرت من العائلات السبعة؛ لم أتشرف بالتعرف عليها ولم أسمع عنها لأروي المزيد، لدرجة أنني قد أجلس

إلى جانبهم في حافلة النقل العمومي، أو أصادفهم في محل وألقي السلام عليهم دون أن أعرفهم. ستستغربين وقد تتساءلين أين هم؟ فقدتهم بسبب صراع عائلي لا ناقة لي فيه ولا جمل، نحن باختصار عائلة لم تنجح في أن تحب بعضها أو لم تعرف كيف تفعل ذلك. فالمسألة تتعلق بالارتياح الذي يفرضه الأشخاص بقربك، ولا علاقة للصّلات والروابط بذلك! للأمانة... لم أكتب لعامة الناس بقدر ما كان للورثة –كما يعتقدون- فهم يظنون أنفسهم شركاء في البناية، التي كانت قد تنازلت عنها "صفية" كاملة لجدي "عزيز" قبل آخر حريق. أردتُ أن أحيط الأهل المتذاكين بأصل الحكاية التي لا يعرفون عنها شيئا، ويصرّون على الظفر بحصة لم تكن لهم من الأساس، أعتقد أنني وُفّقت في إيصال مرادي، فقد ذاع صيت البناية بما يكفي؛ لدرجة أن القراء اهتموا بالبحث عنها وعن أبطالها الحقيقيين مع اقتراب الأحداث من نهايتها. ليت بإمكاني معرفة رأيهم حيال ما قرؤوه، لكنني لا أستبعد أن يكونوا قد اعتبروها فضيحة عائلية لا تُغتفر، أو صرّحوا فيما بينهم أنها من وحي خيال كاتبها ولا علاقة لها بالحقيقة. أتساءل... هل لا زالوا يتطلّعون على البناية على أنّها التفصيلة الأخيرة التي تقف عليها حلول جلّ مشاكلهم، ويتطلعون صوبي على أنني من حوّلها إلى غصة عالقة في حلقهم لا تسمح لنا باستطعام حلاوة الحياة! ويا ليتهم يتطلعون فنحن بالكاد نتعامل فيما بيننا بفضل وساطة محامي، لو يعلمون كم تتضوّر روحي وحدة حين أرى المناسبات والأعياد تطرق جميع الأبواب إلا بابي، ولا أجد أجسادا تُحتضن ولا صورا للذكرى، وكم يقتلني الضجر كل ليلة ثم يرمي بي بين أنياب التفكير المزمن ليفترسني على مهل؛ كلما خطر ببالي أنه كان في الإمكان تسوية الأمور معهم دون الحاجة إلى الانفصال عنهم. لكنها أمانة! أمانة وكّلها إلي والدي بعد أن أمنته إياها جدتي؛ بأن لا نسمح بتوارث هذه البناية الملعونة المشكوك في مدى أحقية هذه العائلة بها؛ تفاديا لما حدث مع البقية.

أشكّ أنهم فهموا مقصدي فالكلام مع الأهل شائك بطبعه؛ تتكوّن لديك الكثير من القناعات التي تخصّهم وتريد الافصاح لهم عنها ولا تعرف كيف، وربما تمضي عمرك تحاول ولا تستطيع، أما إذا استجمعت شجاعتك واستطعت؛

سيُساء فهمك بطريقة أنت نفسك لم تتخيلها! لهذا استغنيتُ عن مواصلة التبرير.
فكرت كثيرا في قرار المضي أو البقاء، لكنني لم أجد سببا للبقاء في مكان لا شيء لي فيه سوى وثيقة ملكيّة. أردت أن أبدأ حياة جديدة من مكان جديد، رغما عن قناعتي بكوني تأخرت نوعا ما على البدايات!
في هذه الأثناء –التي أكتب فيها رسالتي- أجلس على احدى مقاعد الانتظار بالمطار، بعد أن قطعت تذكرة ذهاب بلا عودة.
هذا الخطاب الوحيد الذي لن أستطيع التأكد من وصوله، على كل حال... أظن أن الرسالة وصلت!
في أمان الله
- راوي الحكاية-

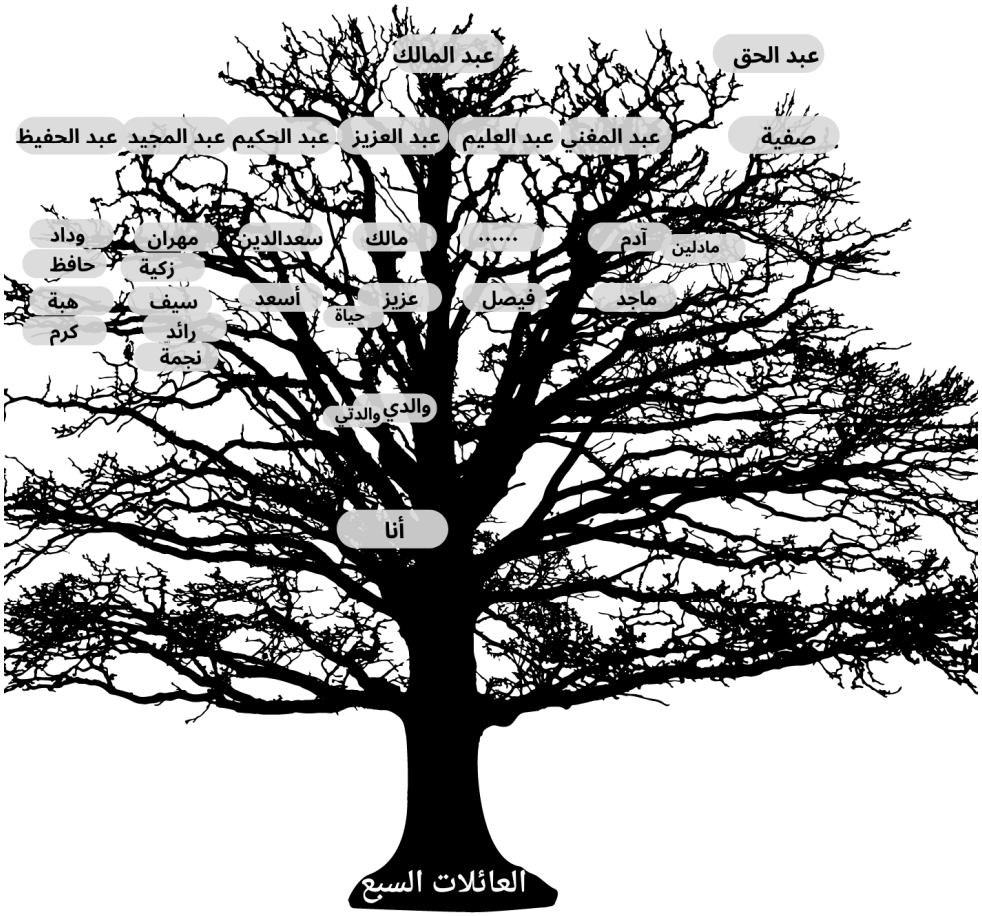
عبد الحق
عبد المالك
صفية
عبد المغني
عبد العليم
عبد العزيز
عبد الحكيم
عبد المجيد
عبد الحفيظ
مادلين
آدم
.....
مالك
سعدالدين
مهران
وداد
زكية
حافظ
ماجد
فيصل
عزيز
حياة
أسعد
سيف
هبة
رائد
كرم
نجمة
والدي والدتي
أنا
العائلات السبع

أخرج المفتاح من الظرف بعد أن قرأ سريعا ما احتواه من أوراق، فلم يفهم مفادها، رماها جانبا متسائلا:

- مَن "جيم" هذه؟ صاحبة البيت كان اسمها "سارة"!

تراجع عن نيّته في الخروج، كانت بعض العبارات التي قرأها قد علقت بذهنه، فأنارت فيه فكرة كان يبحث عنها مؤخرا باستماتة. سارع بسحب هاتفه من جيبه الخلفيّ محتفظا بالمفتاح في يده الأخرى، بحركات سريعة دخل مجموعة المحادثة الخاصة المُسماة "فريق العمل" على "الواتس اب"، ضغط مطوّلا على زر تسجيل رسالة صوتية ليرسل ما يقوله:

(مرحبا يا أصدقاء... إليكم بشرى سارّة! لن تصدقوا... لقد وجدت الفكرة التّي كنا نبحث عنها تقريبا، وبأقل التكاليف! علينا بذل جهد مضاعف إذا أردنا إطلاق المشروع قبل حلول العام الجديد، الأمر تعجيزيّ نوعا ما لكنه قابل للتحقيق، علينا توزيع المهام فيما بيننا!
الفكرة والقصة متوفرّة.
رباب... ابحثي في مجلة شهرية بعنوان "نور" عن مقالات متفرّقة على مدار شهور، تخص بناية مهجورة، ابعثي لي نسخة من كل الأعداد التي تحدثّت عن الخبر ونسخة مماثلة لزياد.
زياد... استخرج من المقالات المشاهد المطلوبة، غيّر ما يستدعي التغيير وأضف ما يلزم لتصل إلى سيناريو مبدئي في غضون اثنين وأربعين ساعة كأقصى تقدير، لا تقلق هو يشبه فكرتك إلى حد ما!
شهد... أريد تقريرا مفصلا بكل ما جال في مواقع التواصل الاجتماعي عن هذا الموضوع من آراء وانطباعات.
عمر... سأرسل لك مواصفات الشخصيات المطلوبة، أنشر على مجموعات "الفايس بوك" فرصة للمواهب التي لم يسبق لها الظهور؛ للمشاركة في فيلم تصويري قصير، وتواصل مع المهتمين لترشيحهم للأدوار بعد تجارب الأداء.
سأعاين المكان لأرى ما نحتاج كديكور وأستشير "نوال" من أجل الأزياء المطلوبة.

موقع العمل متاح أيضا... سنصوّر من قلب الحدث لكن قد نواجه مشكلة ترخيص بالنشاط، سأرى ما يمكنني القيام به حيال ذلك.

همّتكم معي يا شباب!)

ثم سحب ابهامه ليتم الارسال.

يوم قبل رأس السنة الجديدة
(نفس الشخص في نفس المنزل)

.....

بعد مضي أقل من يوم على مشاركة المنشور الجديد **بصفحة** "لعبة لعنة"، جمع ما يفوق الألفي إعجابا، ويقارب مائتي مشاركة وألف تعليق؛ أشار في أغلبهم المهتمون إلى أسماء أصدقائهم.

(منشور افتتاحي

#لعبة_لعنة

هل تستطيع الهروب خلال تسعين دقيقة؟ هل تستطيع أن تتحدّى خوفك!
تريد كسر الرّوتين اليومي الممل؟ معايشة تجربة فريدة من نوعها؟ بحاجة لخلق جو من الإثارة والمتعة والتحدي؟ لعبة الهروب من المنزل، أكثر لعبة واقعية يمكنها محاكاة رغبتك هذه!

مغامرة حقيقية جديدة مصممة لمجموعة صغيرة من الأشخاص- أقارب أو أصدقاء أو زملاء- وطريقة لخلق ذكريات رائعة والقيام بشيء خارج الصندوق.

إذا كنت تمتلك القدرة والرغبة لممارسة ألعاب التحري والتحقيقات في العالم الافتراضي وترغب في اختبار مهاراتك على أرض الواقع، فهذه فرصتك... لعبة الهروب من المنزل تتحداك!

اذا كنت زائرا عابرا فهذه اللعبة هي محطة يجب التوقف عندها أثناء تجولك المنطقة!

- **مبدأ اللعبة:**

عند دخولك الشقة يكون كل شيء طبيعيا، لكن بمجرد إلقاءك نظرة فاحصة على المكان ستجد أمامك سلسلة من الألغاز الغامضة يجب حلّها، أقفال ورموز عليك فكّها في غضون تسعين دقيقة لا أكثر!... الوقت المحدد من أجل العثور على طريقة للهروب من المنزل.

- **قواعد اللعبة:**

- تتكون مجموعات اللاعبين من ثلاثة الى ستة أشخاص؛ أعمارهم تفوق الست عشرة سنة. أمّا ما دون ذلك فيجب أن يصاحب اللاعبين مرافق بالغ.
- تتطلب اللعبة إحاطة لاعبيها بالمعارف الأساسية للقراءة، وقد تمّ إدراج اللغة العربية والانجليزية لضمان استيعاب كافة أطراف اللعبة.
- لا يوجد في اللعبة نظام المساعدة والتلميح للاعبين.
- بعد الانتهاء من اللعبة يتم تسجيل آراءكم بعد خوض التجربة صوتا وصورة، لتضاف إلى أحداث اللعبة المصورة داخل الشقة، يأخذ اللاعبون نسخة فيلمهم معهم ويحتفظ طاقم العمل بنسخة.
- يتم التوقيع على إقرار بالمشاركة من طرف كل اللاعبين.
- اللعبة غير مسموح بها لمن يعانون من رهاب الأماكن الضيقة أو الخوف من الاحتجاز وأمراض الضغط والقلب، نُخلي مسؤوليتنا في حالة اخفائهم ذلك!

- **مجريات اللعبة:**

- عند مدخل العمارة منطقة مخصصة مريحة يقوم فيها اللاعبون بالاستعداد، ويقوم المسؤول عن المكان بتقديم اللعبة، وإعطاء كافة الشروط والتعليمات اللازمة من أجل الاستفادة القصوى من هذه التجربة الفريدة.
- يتم حجز شقة من السبعة واختيار اللعبة المرفقة بها، كل شقة مختلفة تماما ومستقلة عن غيرها... مع إمكانية المشاركة في أكثر من لعبة.
- الشقق المتاحة حاليا هي أربعة، سيتم افتتاح ثلاثة أخرى جديدة قريبا، تحتوي كلها على مستويات متساوية من حيث الاثارة والصعوبة، يتم تغيير موضوعاتها بشكل دوري لضمان تجديد التحدي لكافة اللاعبين.

- تستدعي اللعبة التفكير كفريق واحد وتعتمد على المجهود الذّهني لكنها لا تخلو من المتطلبات الجسدية.
- منذ بداية اللعبة ودخول الشقة، يرافق اللاعبون بمؤثرات صوتية وبصرية لتنبيههم.

- **المواعيد:**

- من السادسة بعد الغروب إلى منتصف الليل.

- **للحجز والاستعلام:**

- يرجى التواصل معنا إما بمكالمة هاتفية أو بترك رسالة عبر البريد الالكتروني (تجدون وسائل التواصل في معلومات الصفحة)
- كما يمكنكم زيارة مقرّنا وأخذ موجز مختصر عن القواعد والتعليمات قبل حجز الوقت المناسب للعبتكم حسب مواعيدنا المتاحة.
- تقدم المؤسسة خدمة شراء قسائم واهدائها لشخص معين للمشاركة؛ عيد ميلاد صديق، تخرُّج أحد أقاربك، مفاجأة شخص عزيز عليك...

- **ملاحظة:**

- ننصح جميع اللاعبين من نفس الفريق القدوم في مجموعة واحدة وفي وقت واحد. ...)

خلف الشاشة كان يقرأ تعليقات متابعي الصفحة، في أغلبها تحمس الأصدقاء بدعوة أصدقاءهم لمشاركتهم التجربة، تخللتها ملصقات بردود أفعال مختلفة، فميزت عيناه منها ما يلي...

- كم تبقّى على افتتاح المشروع؟
- هل للألغاز علاقة بالفيلم التصويري للعمارة الذي شاركتموه على نفس الصفحة؟ بمعنى... هل يتوجب أن نكون على علم بالحكاية لنستطيع فك شفرة الهروب؟

- لو شعرت بعدم الارتياح والرغبة في مواصلة اللعبة، هل يمكنني ترك البيت وقتما أردت؟
- هل يسمح بالمشاركة الفردية؟
- هل هذه طريقة لاعادة تصوير الفيلم بأبطال حقيقية هذه المرة؟
- إذا لم يستطع الفريق حل لغز الهروب هل سيبقى محتجزا في البيت؟
- هل ستقومون ببثّ المقاطع بعد اللعب؟
- هناك نقاط مشتركة بين الفيلم الذي سبق ونشرتموه وقصة تداولتها إحدى المجلات على مدار السنة، هل من توضيح؟
- لماذا تسعون دقيقة فقط؟ كم تكلفة يوم كامل؟
- شاهدت الفيلم وأعجبتني هذه الفكرة... أرجو أن يبقى العرض متاحا إلى أن أشكل فريقي.

لمعت عيناه وابتسم ابتسامة نصر بمقدار التفاعل مع فكرته، ترك هاتفه جانبا وأرخى جسمه مغمض العينين بعد أن توسّد كلتا يديه.

لقد أُعجب أحد المستثمرين بفيلمه التصويري، وقرر تبني الفكرة وتحويلها إلى مشروع لعبة تفاعلية؛ ستنطلق فعاليتها التجريبيّة مساء أول يوم من العام الجديد، بعد أن تمكن المستثمر من تسوية أوراق التصريح لاستغلال البناية.

قبل أسبوع... (٢٠١٩/١٢/٢٤)
(المطار)

.....

"الرجل هو رأس العائلة، والمرأة هي الرّقبة التي تدير ذلك الرأس"

في بهو المطار، كان "ياسر" يسلّم ظرفا إلى خدمة البريد العاجل ثم ترّجل بضع خطوات ليقف أمام كشك لبيع الصحف والمجلات، شدّه عنوان أحدها.
كان "جواد" واقفا على مقربة منه، نظرا في الاتجاه نفسه تقريبا مع فارق بسيط؛ راوغت عينا "ياسر" وحاول منع نفسه من اقتناء عدد جديد، أما "جواد" فقد جفلت عيناه مودّعا لآخر مرة المجلة التي كتب فيها مرارا.
انتبها إلى بعضهما فبادر الثاني بسؤال الأول:

- أراك مهتما... هل تابعت سلسلة الحكايات التي نشرت في هذه المجلة؟

رد متجاهلا:

- نعم...كانت قصصا لطيفة. وأنت؟

أسئلة كثيرة نتراجع عن طرحها للطرف الآخر، فقط لأننا نتوقع إلى حد كبير أنه سيمرر لنا السؤال ذاته فور إجابته "و أنت؟ ماذا عنك؟". لكن "جواد" كان قد أخذ احتياطه وصاغ إجابة نموذجية لسؤاله قبل أن يطرحه؛ فأجاب دون أدنى تأثر:

- أشاركك الرأي.

ثم مضى كل منهما في اتجاه معاكس.

كيف لنظرات اللقاء الأول بين شخصين يفترض بهما أنهما يعرفان بعضهما، مع أنهما يتعرفان لأول مرة، أن تكون بهذه السطحية وكيف للعيون أن تستطيع الاستيعاب؟

أخرج "جواد" ساعته الفضية القديمة التي اقتُطع جزء من سوارها الجلديّ؛ ليتفقّد التوقيت، ثم عاد إلى حيث تجلس "سارة" بعد أن ابتاع كوبَي قهوة، وقف على مقربة منها متأملا ما تفعله ثم سألها عندما لم تلحظ وجوده:

- لِم مسحت التسجيل؟

قال مخاطبا، فأجابت بسؤال:

- لِم لا زلت تحتفظ به؟
- كذكرى لا أكثر! لا تنسِي أننا مدينان لهذا الشاب.
- لم أقل عكس ذلك لكنه حدثٌ وانتهى.
- نعم... مجرد حدث انتهى، لدرجة أننا بفضله في المطار وفي طريقنا نحو الحياة التي حلمنا بها !

أتبعت قولَه بضحكة عفوية ثم ردت مصطنعة الحزم في نبرتها:

- نحن هنا نتيجة لجهدك وعملك، وحصيلة لأفكاري، وبمشيئة القدر، ولتوافق بعض الصدف، وبفضل "ياسر"... جيد هكذا؟!
- تقريبا !

ضحك عندما قالها ثم جلس الى إلمقعد بجانبها ومدّ لها بكوب القهوة الثاني، سمحت لنفسها باستنشاق عبقها المتصاعد للحظات ثم وضعته جانبا وواصلت:

- ثم أنّك دفعت ضريبة هذا! لقد تخلّيت عن كتابة اسمك الكامل واكتفيت بحروفه الأولى.
- لنقل أنه اضطرار أكثر من تخلّ عن إرادة.

تذكرت شيئا فردّت:

- هذه كلمة ينبغي حذفها من قاموس الإنسان!
- أتعلمين يا سارة؟ أحيانا أشعر أنني استغليت "ياسر" وأندم لأنني أصغيت لفكرتك.

- لِم تأزّم الوضع؟ نحن لم تأخذ مقالاته دون إذنه، هو موافق على النشر والمبادر بالفكرة أساسا. مسألة إن كنتُ أنا في الصورة لا أنت لن تغير أصل الموضوع، كان يمكن لأي مصدر غيري أن يفيدك.

رد بامتعاض:

- لِم تتفادين الحديث في الموضوع لا أفهم! قصدت بالاستغلال أننا لم نفصح له عن هويتنا وعلاقتنا به.
- وهو فعل ذات الشيء، لم يعرف بنفسه، حتى على أظرفة رسائله كان يكتفي بـ"راوي الحكاية" كاسم مستعار!

و أضافت مغيرة الموضوع:

- ألن تسألني لِمَ أعبث بحاسوبك اللّوحي وعمّا كنت أبحث قبل أن أجد التسجيل؟

ربّع "جواد" يديه ووضع رجلا فوق الأخرى ورد بثقة:

- عن نسخ الرسائل... أليس كذلك؟

قالت بنبرة الوداعة المعتادة:

- أين هي؟
- هناك ملف خارجي فيه كل ما يتعلق بالموضوع، ونسخة من التسجيل الذي حذفته قبل قليل أيضا.

عادت تتصفح الجهاز ووجدت ما قاله بسهولة:

- برو...با... غندا؟ ما معناه؟ شفرة هذه أم محاولة تمويه؟
- بالعكس حاولت تلخيص الحملة بمصطلح، لا تقولي لي أنك لا تعرفين ما معنى "البروباغندا".
- ما دخلي بمثل هذه المصطلحات؟ أنا لا علاقة لي بدنيا الإعلام، هل صدّقت أنني صحفية؟
- إنها ثقافة عامة لا أكثر... على كل حال، تعني "البروباغندا" تسويق معلومات بطريقة موجهّة أحادية المنظور، بتوجيه أكبر عدد من الرسائل، بغية التأثير على آراء وسلوك الأفراد.

قطبت "سارة" حاجبيها في تساؤل:

- وماذا يعني هذا؟

- باختصار من يقومون بذلك تنطبق عليهم العبارة "يعرفون من أين تؤكل الكتف" متخصّصون في الفن البشري ويعرفون إثارة عواطفه، يختارون العبارات المناسبة، في التوقيت المناسب، لتصل للفئة المعنيّة، بالطريقة الأنسب.

جحظت عيناها محاولة الاستيعاب فسألها بنبرة جادة:

- أتعرفين ما أهم شيء في أي تصرف نقدم عليه؟

ردّت تلقائيا:

- الغاية؟
- لا... النتيجة! نتيجة ما قمنا به كان لصالح جميع الأطراف؛ ياسر؟ تم التّعاطف مع حكايته ولم يمسس أحد بيته المزعوم. القارئ الذي اقتنى المجلة؟ تسلى بقصة واستمتع ببعض الإثارة والتشويق. المجلة؟ حققت نسبة مبيعات ومقروئيّة لم تحققها منذ أن افتتحت! ونحن استطعنا التخلص من ذلك القيد العائلي وتأمين مستقبلنا.

لم نلحق ضررا بأحد، المعادلة متساوية الطرفين.

سألته بصوت خافت:

- ألم تنس طرفا في المعادلة يا "جواد".
- الطرف الذي كنتِ تريدين البحث عنه في الرسائل؟
- أجل! عائلتَينا.

سكت للحظات ثم أجاب:

- خطر ببالي شيء للتو... غريبة هي الحياة! أحيانا تكون ذات الأسباب التي يُفترض بها أن تجمع بين الناس؛ أسبابا للتفريق بينهم!

أن يكون شخصان من نفس العائلة احتمال يضاعف فرصتهما ليكون مستقبلهما معا؛ إن كانت هناك فرصة من الأساس طبعا، لكن في حالتنا كان هذا سببا في إعادة النظر.

وقتها تراود سؤال وحيد إلى ذهنها مصمّما فباشرت بطرحه:

- هل ندمت على مشاركتك الحكاية ونشرها؟
- ليست الفكرة، أردت أن نستقل بحياتنا بعيدا... أنت من أردتِ التّدخل دائما.

- لمَ وافقت إذن؟
- و كأنك تركت لي الخيار! أ تعرفين ما معنى أن يستشيرك أحد؟
بطريقة غير مباشرة هو يريدك أن تؤيّد قراره، حتى ما إذا ندم عليه يوما يحمّلك جزءا من المسؤولية معه! ثم أنكِ ذهبتِ إلى هناك دون إذني، كما لو أنك أنتِ العبد الضعيف الذي في مقدوره حل مسألة عجزت عائلات عن حلها لسنين، ثم أدخلتني في اللعبة برغبة مني رغما عني.
- كنت أود أن أفهم سر رفضه لبيع العمارة والوصول لحل يرضي جميع الأطراف، صحيح أنه صاحب أكبر حصة؛ لكن أهلي وأهلك والباقون ورثة أيضا، أ لسنا الأبناء والأحفاد في نفس الشجرة؟ لقد كان موقفه طفوليّا، تماما كمبدأ كرة القدم في الشارع؛ إذا غضب صاحب الكرة أُنهيت المباراة، كان سبب زيارتي أن أعرف سبب تصرفه العدائي الذي لم أجد له مبررا.
لكن شيئا ما أوحى لي في آخر لحظة بأن أستغّل عملك وكنت متأكدة من مساندتك؛ لأن طريقتي لم تكن لتأتي بنتيجة.
أجاب ساخرا:
- وعرفتِ سبب تصرفه الأرعن على حد قولك؟
- لم أستطع أن أره سوى في هيئة شخص انهزامي، قابع خلف أسوار منزله المحصّن ويميل إلى فلسفة كل الأمور. ما شدّني في تلك الزيارة هو المكان الذي يسكن الذاكرة ويسرق العقل بمجرد إمضاء بعض الوقت فيه؛ رغم أن لا شيء فيه خارق للعادة.
سألها بنبرة متربصة بالاجابة:
- لقد كان على حق فيما رواه إذن؟ البناية تستقطب أصحابها.
فكرت برهة وقالت مترددة:
- ربما... لكن هذا لا يؤيد تناقله حكاية خرافية مفادها أن لعنة حُقّت علينا جميعا من قبل حتى أن نولد!
ضحك ثم سأل مستفزا إياها:
- خرافية إذن؟ يجوز!

- لا تقل لي أنك اقتنعت أن السيناريو نفسه الذي حيك منذ سنين؛ كان يُعاش مجددا في البناية كلما حاول أحد امتلاكها عنوة، كما لو أنها تنتفض، صحيح أن فيما سرده الكثير من الحقائق، لكننا نعلم لِم أضاف هذه التفاصيل، أراد أن يستبيح إرثها لنفسه وقد نال ما أراد، فليعش في سلام في قصره المزعوم مع أساطيره وليحتضن جدرانه إلى الأبد!

كتم ضحكته بصعوبة حين أخذت نبرة "سارة" منحى جدّيا بلا داع، ثم سأل ليعيد الحديث الى مجراه:

- لماذا بالتحديد كنت تبحثين عن الرسائل!
- ألم تشعر بالفضول حيال من تكون عائلتي وعائلتك في ما رواه؟ وما دام كان يعرف عن العائلات كل تلك التفاصيل لِمَ لم يتعرّف عليّ ويكشف حقيقتي؟ خصوصا وأنه علِم بعنوان مسكني!

تبادلا نظرات متسائلة ثم أجاب "جواد" :

- ألم تقولي أنه من الطراز الذي لا يبالي بما يحدث خارج حدود بنايته؟ ثم هل تذكرت الآن لتسألي... فرضا أننا حللنا سر ذلك؛ في ماذا سيفيدنا؟

أمسك رأسه بكلتا يديه ثم واصل:

- أنتن معشر النساء غريبات لدرجة مستفزة، تردن فيها حشر أنوفكن في كل كبيرة وصغيرة... لا ترتحن حتى تعرفن أصل كل موضوع... حتى لو لم يكن مهما، حتى لو لم يكن يعني لكنّ شيئا!

ردت مغتاظة:

- لِم تعمّم؟ فلتتحدث بصيغة المفرد المخاطب.
- أنا صريح... أقول ما أراه حقيقة وما يخطر على بالي فورا، حتى لو كنت معك وحتى لو كان الثمن أن أقضي ساعات الطائرة الإثني عشر في صمت وضجر بعد خصامي معك.

ضحكت وقالت باستفزاز:

- ساعات الطائرة فقط؟! طموحي أعلى من هذا بكثير.

سكتت لثوان وباشرت بمواصلة حديثها لكنها توقفت عندما سمعت إشعار وصول رسالة لجواد، فسألته:

- من؟

أخذ فرصة ليقرأها ثم أجاب:

- صاحب شقّتكِ السابقة بعث رسالة يقول فيها "شكرا" مع ملصقة لشخصية تطير سعادة... مجنون كأفكاره!

ردّت بامتعاض:

- هل خطر ببال قريبك أن يشكرنا الآن. لقد وقّعنا العقود بالأمس، وبالمناسبة لقد ربح الكثير في بيتي الذي اشتراه.
- مخطئ من يعتقد أن العائلة يمكن أن تكون مصدرا لأي منفعة كانت، برأيي أن تركيبة العائلة قابلة لتكون مصدرا للمشاكل أكثر. جرّبي واكتبي في مؤشر البحث بغوغل كلمة "المشاكل" وتوقفي لتري الاقتراحات؛ ستكون "العائلية" من بين الاحتمالات الأولى المكملة لبحثك!
- لا تبالغ... ليس إلى هذا الحد!

صمتت محاولة الاقتناع وأضافت:

- يمكن أن أتفق معك أنهم مصدر لتوارث الأمراض.

ضحك بازدراء فسلّمته جهازه. بعدها بلحظات أعلنت الخطوط الجوية عن رقم رحلتهما وطلبت من السادة الركاب التوجه إلى البوابة الموافقة، فاستعدّا وتفقّدا وثائقهما، أمسك كل منهما بطرف من مقبض الحقيبة لجرها، واتجها نحو البوابة بعد أن تركا الجهاز على المقعد عمدا بما فيه من رسائل!

في الجهة المعاكسة كان "ياسر" يحمل حقيبته متوجها نحو مدرج الاقلاع لنفس الرحلة.

ثوان وغاب جميعهم في زحمة المسافرين.

أول يوم من العام الجديد

.....

"العائلة هي صورتك
امتحان القُربى قاسٍ، جرّبته بنفسي.
لا تمُت قبل ذلك، قبل أن تحبّهم واحدًا واحدًا
وتتفهّم ذاك الشعور الغامض من الودّ الذي يجولُ في داخلك نحوهم
ولا تعرفُ له سببًا.
كيف لك أن تتأكد من حقيقة مجيئك إلى الدنيا عَظْمةً عَظْمةً، دونهم؟
أليس وجهك تركيبًا من وجوههم جميعًا؟"

-أحمد العلي-

خبر احتل الصفحات الأولى من الجرائد اليومية:

سقوط بناية غير آهلة بالسكان كانت آيلة للسقوط دون تسجيل خسائر بشرية تُذكر.
وتعد من بين عدة بنايات تعود إلى الحقبة الإستعمارية، **مصنفة من قبل مركز المراقبة التقني للبنايات كبناء هش آيل للزوال، تقع** بالشارع الرئيسي من قلب المدينة حيث تعود لأحد الخواص الذي شرع مؤخرا في عملية ترميم البناية مما أثر على هيكلها وتسبب في سقوطها. من جهته، استنجد صاحب البناية بآليات وشاحنات لتهديم بقايا البناية وتدخلت مصالح الحماية المدنية لحظة وقوع الحادث فيما هرعت مصالح الأمن إلى تطويق المكان وغلق الشارع الرئيسي مما تسبّب في ازدحام مروري خانق.

النهاية

تمت بفضل الله وعونه
١٥.٠٧.٢٠١٩
ر.أ.ق

اعتراف...

أيّهما الأجدر بالسّبق؟

الواقع المعاش هو من يكرّر ما جاء في الأساطير والحكايات الخالدة بأسلوب مقنع أكثر، عندما يتأثر الأشخاص بالأبطال فيتقمصون أدوارهم ويرتجلون الباقي منها؟

أم خيال الكاتب هو من يستمد من الوقائع ويُجمّلها بما يكفي حتى يتسنى لقارئ تجرّعها، فإمّا تزيد واقعه مرارةً وإمّا تعينه على التّعود على طعمه؟

بين هذا وذاك...
تبقى قصصٌ لا مكان لأبطالها على أرض الواقع، ووقائعٌ يصعب على صفحات كتاب استيعابها، أحاول الخوض فيهما بقلمي ما استطعت!

قارئي المتواضع...

**أتعلم متى يصبح للحكايات معنى؟... عندما تُحكى!
الطّرفان يعيشان المتعة؛ من يحكي ومن يسمع أو يقرأ.**

أنهيتَ قراءة الرواية لكن الرواية لم تنتهِ منك بعد! صحيح أن الحكاية توقفت هنا لكن الرحلة قد بدأت لتوّها... رحلتُك! ثق أنني لم أتركك في نهاية الطريق ولا في منتصفه حتى، سأتركك في بدايته... رواية جديدة أنت صاحبها، لن أكلّفك عناء كتابتها أريدك فقط أن تعيشها.

أتمنى أولا أن تكون روايتي قد لامست شغاف قلبك دون أن تُعكّر صفو دماءه الراكدة التي تُضخ بلا هوادة، وأن لا تكون قد أثارت الفوضى في عقلك حين سرّبت إليه بضع أفكار لطالما حجبتها عنه بغطاء الإنكار أو التجاهل، وأن تكون قد منحتُك الإجابات الشافية لكل ما سببتُه من حيرة.

أظنّ أنّ العائلات وتركيبة أفرادها كانوا كافين لتجد نفسك في شخصية منهم أو تجمع شخصيتك من بعضهم، في حياة كلّ منا أشباههم أو قد نلتقي بهم كثيرا في واقعنا، ستتغير الأسماء والملامح فقط. لن أسالك أي العائلات كانت أقرب إلى عائلتك، لكنها حتما في نقطة قابلة للتحول لأي واحدة منهم. ما يهمني بعد كل ما قرأته كيف ستكون عائلتك المستقبلية؟... واحدة من العائلات التي استمعت إلى حكاياتها؟ أم مزيجا من السبعة؟ أم أخرى جديدة بعيدة عن مساوئ وعيوب هؤلاء؟

أتوق لمعرفة الإجابة لكن يكفيني أن تعيشها، تعيشها كما يجب!

بعيدا عن كل الرسائل التي حاولتُ تركها لك تبقى رسائل الحياة هي الأصدق؛ الأحداث من حولك "رسائل"... الأشخاص الذين يعترضون طريقك "رسائل"... حتى خلف النظرات والحركات والنبرات تقبع آلاف الرسائل

المهملة؛ عيبها الوحيد أنها مشفرة، وميزتها أنها أبلغ من أن تكون حرفية بحذافيرها، فما تحمله من مضامين يفوق ما تظهره بكثير.
تفقّد بريد حياتك باستمرار ولا تهمل ما يصلك منها، أما إذا وصلتك احداها بالخطأ فتفطّن إلى مراجعة عنوان مبادئك وقناعاتك؛ وارد أن تكون تحكمات الحياة قد غيّرته!

شكرا لمرورك الكريم، أستأذنك بالمضي لملأ جعبة حكاياتي من جديد وإلى أن نلتقي في عمل آخر -وحتّى لو لم نلتق- أتمنى أن تكون بخير دائما. جملتي الأخيرة لك... " اقرأ العنوان مجددا!"

*****